سلسلة تدبر قصص القرآن الكريم

١

محطَّات تدبُّريَّة وتأملات تربويَّة

من قصة يوسف

- عليه السلام -

وكتبه العبد الفقير إلى عفو ربه/أبو الخليل زياد الريسي

مدير الإدارة العلمية لملتقى الخطباء

بسم الله الرحمن الرحيم

محطَّات تدبُّريَّة وتأملات تربويَّة

من قصة يوسف - عليه السلام -

مقدمة

الحمد لله صاحب كل فَضْل ومنَّة، أنزَل أحسنَ كتاب على خير نَبيّ لخير أُمَّة، جَمَع في مضامينه الحُسنَ مطلقًا، و أفضل ما جاءت به الكتب قبله شرعةً ومنهجًا؛ فكان خير هدًى و أقوم ملَّة؛ منهاج ربّ العالمين، وسراج عباده على مرّ السنين، ذِكْرٌ لأهله في الدنيا، وكرامةٌ لهم يوم الدين، هو حبل الله المتين وذِكره الحكيم، فيه خبرُ ما قبلَنا، ونبأُ ما بعدَنا، وحُكْم ما بينَنا، الموعظة والنور والشفاء لِمَا في الصدور، سرّ البلاغة ومنبع الفصاحة، لا تنقضي عجائبُه ولا تنتهي أسراره، ولا تنحسر فوائدُه، المنهل العذب والعَيْن الزلال، أمان النفوس وسعادتها وعصمة القلوب، وصمام ثباتها.

جاء بالعقيدة والشريعة، والحقوق الواجبات، والتربية والسلوك، مُصْلِحًا لحياة البشريَّة حالًا وزمانًا ومكانًا، مفصِّلًا لكل شيء وتبيانًا، عرَض مرادَ الله -تعالى- من عباده بأساليبَ مختلفةٍ، وقدَّمه بصِيَغ متنوعة.

وكان من أساليبه الراقية وطرقه المفضَّلة: أسلوب القصص القرآنيّ؛ فيا لله كم شملَتْ قصصُه من توجيهات تربويَّة! وكم حَوَتْ من رسائل تعليميَّة! فكانت بذلك أدعى ليَفْهم العبادُ مقاصدَها وأحرى ليدركوا أهدافَها.

ومن تلك القصص العظيمة التي تضمَّنت رسائلَ بليغةً في طياتها، واكتنفت توجهاتٍ عميقةً في سياقها: قصة نبي الله يوسف -عليه السلام-.

ففي زمن الشتات يبقى القرآنُ نورَ الأرض الذي لا يخبو، تتعطَّش قلوب الخلق لهدايته، وتتشوق نفوس العباد لنوره؛ فهو سبيلُ السالكين الذي لا يضل، وطريق القاصدين الذي لا يعوج، من بين كنوزه العظيمة، تتلألأ قصصه كنجومٍ مضيئة، تصنع من الأحداث عِبرًا، ومن المواقف دروسًا، تنير العقول وتزكي النفوس وتسعد القلوب وتجبر الخواطر.

ومن هذا المنطلق نجد أن الله -تعالى- قد لفت انتباهَنا إلى مقصد عظيم من مقاصد إنزال هذا القرآن الكريم؛ ألا وهو تدبُّر آياته، والعيش معها قلبًا وفكرًا وحسًّا ومعنًى؛ قال الله -سبحانه-: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)[ص: ٢٩]، وقال -تعالى-: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)[النساء: ٨٢]، وقال -جلَّ شأنُه-: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[محمد: ٢٤].

وبالتالي ما كان لهذه المعاني جميعها أن تتحقق إلا بهذا المقصد العظيم، وما كان لعبدٍ أن يدرك مُراد الله فيه، ويبلغ مقاصد أحكامه وتشريعاته؛ ما لم يسلك مسلك التَّدبُّر؛ كونه السبيل الحصري له، ولذا سهَّل اللهُ لعباده قراءتَه وتلاوتَه، ويسَّر لهم فَهْمه وذِكْره؛ قال الله -سبحانه-: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)[القمر: ١٧]، وقوله -تعالى- (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[الدخان: ٥٨].

محطَّات تدبُّريَّة وتأملات تربويَّة

من قصة يوسف - عليه السلام -

ومن خلال التدبر-أيها الأخ الكريم- يتسنَّى لقارئه وسامعه إدراك مُراد الله فيه، وعندها يمكنه تمثُّله عقيدةً وفكرًا وعملًا وسلوكًا؛ فيصلح قلبه، ويستقيم حاله.

وقد رأيتُ مستعينًا بالله -تعالى- أن أشرع في إعداد سلسلة من التدبُّرات والتأمُّلات في روائع قصص القرآن الكريم، أسميتُها: (سلسلة تدبُّر قصص القرآن الكريم)، وكانت بداية هذا العقد ومستهل باكورته ودرة تكوينه: (محطَّات تدبُّريَّة وتأمُّلات تربويَّة من قصة يوسف -عليه السلام-).

كون قصة يوسف -عليه السلام- هي القصة التي تفردت بجَمال سياقها، وعمق معانيها، ودقة دروسها، وتنوُّع أهدافها؛ فكانت أنموذجًا فريدًا ينيرُ العقول، ويزكي النفوس، ويهذب الوجدان.

وقد كان من فضل الله -تعالى- عليَّ، وتوفيقه لي؛ أن هداني للوقوف كثيرًا عند هذه القصة البليغة، مُتدبِّرًا آياتها ومُتفحِّصًا أسرارها؛ فوفَّقني -سبحانه- بفضله، لا أقول: لحَصْر كل ما حَوَته آياتها أو تضمنته أحداثها، لكني أحسب أني وَقَفْتُ على كثيرٍ من توجهاتها ولطائفها، وقطعتُ شوطًا كبيرًا في استنباط بعض أسرارها ورسائلها، مستعينًا بربي العليم -سبحانه-، وطالبًا منه شرحَ صدري وتنوير بصيرتي وتقوية فَهْمي؛ لأبلغ مراده وأحقّق مقصوده؛ معتمدًا في ما كتبتُ على التَّتبُّع والاستقراء والتدبُّر والنَّظر، راجيًا أن أكون قد وُفِّقْت للصواب، وحققتُ المرادَ.

ورأيتُ -أيها القارئ الكريم- أن أسلك مسلك التقسيم المرحليّ لأحداث القصة؛ فقسَّمتُها إلى اثنتي عشرة محطة؛ تبعًا لوقائعها ومسايَرةً لأحداثها؛ محاوِلًا إعطاءَ كل محطة حقَّها ممَّا ورَد فيها من لطائف وفوائد وحِكَم وفرائد؛ فكانت على النحو الآتي:

- المحطة الأولى: افتتاح سورة يوسف. ٥
- المحطة الثانية: يوسف والرؤيا. ٦
- المحطة الثالثة: يوسف وخطة التخلص منه. ٧
- المحطة الرابعة: يوسف والقافلة. ١٠
- المحطة الخامسة: يوسف في بيت العزيز. ١١
- المحطة السادسة: يوسف خلف القضبان. ١٤
- المحطة السابعة: يوسف المنفيّ السجين عزيز على مصر. ١٧
- المحطة الثامنة: يوسف العزيز يقابل إخوته تُجَّارًا. ١٨
- المحطة التاسعة: يوسف يلتقي أخاه ويدبر مكيدة لأخذه. ٢٠
- المحطة العاشرة: يوسف وتحقق الرؤيا. ٢٤
- المحطة الحادية عشرة: يوسف والخوف من الخاتمة. ٢٥
- المحطة الثانية عشرة: يوسف وخاتمة السورة ٢٦

والآن لنذهب وإيَّاكم -مستعينًا بالله تعالى- إلى استعراض محطات هذه القصة العظيمة والسيرة البليغة، مستعرضينَ ما فيها من آيات للسائلينَ وموعظة للمتدبرينَ.

المحطة الأولى:

افتتاح سورة يوسف

١- ١ سورة يوسف آياتها (١١١) آية، وهي مكية، وكان نزولها على النبي -عليه الصلاة والسلام- في فترة كانت أشد ما لاقاه من قومه من الإيذاء والإعراض، وما زامَن ذلك من حصار في الشِّعْب دام ثلاث سنوات، وأعقبَه وفاةُ أكبر مناصرينَ له من أهله؛ عمِّه أبي طالب وزوجته خديجة -رضي الله عنها-؛ فكان نزولها في هذه المدة تسليةً له وجبرًا لخاطره وتثبيتًا لقلبه وإشعالًا لجذوة الأمل في صدره، وأنَّ بعد الضيق فرجًا، وبعد الكَرْب نصرًا وبعد الشدة فتحًا؛ وخير شاهد في هذه القصة؛ كيف كانت بدية يوسف -عليه السلام-، ثم كيف كانت خاتمته، وما نال ذلك إلا بعد صبر وإحسان وتقوى.

٢-٢ قصة يوسف -عليه السلام- القصة الوحيدة التي وردت بتفاصيلها كاملةً في هذه السورة فحسبُ، ولم تُذكَر في غيرها من سور القرآن الكريم؛ بينما غيرها وردت في عدة سُوَر، وتصرف سياقها بأساليبَ مختلفةٍ ومتنوعةٍ؛ سواء لأنبياء أو لأمم أو لغيرهم.

٣-٣ سُميت السورة باسم صاحبها يوسف -عليه السلام-، وذلك لمكانته عند الله وعلو قدره، ونسبه؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-، ويوسف نبي من أنبياء الله وهو رسول أيضًا عند جمهور أهل العلم، واسم يوسف عبري، وليس بعربي، ويعني في العبرية الزيادة والعطية.

٤-٤ افتتاح السورة بحروف مقطَّعة (الر): ومثلها ثمان وعشرون سورة افتُتِحَت بمثل هذه الحروف، وفي ذلك إشارة إلى أن القرآن الكريم رُكِّب من هذه الحروف وتكوَّن، ومنه هذه القصة البليغة، وفي ذلك تحدٍّ واضحٌ للعرب الذين كذَّبوا القرآن، وزعموا أنَّه مجرَّد أساطير ومن تأليف محمد، ومن الذين تَولَّوا كِبَر هذا النضر بن الحارث؛ حيث قال: «ليس محمد بأحسن مني حديثًا»؛ فحكى الله زعمهم قائلًا: (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا)[الفرقان: ٥].

وردَّ عليه وعلى شاكلته متحديًا إن كان القرآن كما تدَّعون؛ فَأْتُوا بمثله؛ فحروف هذا القرآن هي حروف لُغتكم التي تتفاخرون بها وتنحتون منها معلقاتكم وأشعاركم وتقصُّون بها؛ فهلا جئتُم بمثله أو بسورة أو حتى بآية يا قُصَّاص ويا شعراء!

لكنهم كانوا عاجزين قولًا وعملًا وواقعًا؛ (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[الإسراء: ٨٨].

٥-٥ (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)، في نزول القرآن عربيًّا زيادةٌ في الحُجَّة على مَن أُنزل عليهم؛ كونهم يدركون بلاغته ويلمسون بيانه وإعجازه، ولو كان غير عربيّ ربما اتخذوا من ذلك مسوِّغًا لعدم فَهْمه، أو منَعَهم غرورُهم أن يؤمنوا به لعربيتهم، ومثله لو كان محمد غير عربي.

٦-٦ تزكِيَةُ اللهِ لنبيّه -عليه الصلاة والسلام-، وتبرئته مما اتُّهِمَ به من الكذب؛ حيث لَفَت اللهُ انتباهَ المُكذِّبين بصريح البيان إلى أن هذه القصة ليست من أساطير الأولين، ولا من تأليف محمد؛ بدليل قوله: (نَحْنُ نَقُصُّ)، وقوله: (أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)، وقوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ)؛ فمحمد -صلى الله عليه وسلم- بَشَر لا يعلم الماضيَ ولا المستقبلَ، ولا يُحيط بالحاضر؛ فكيف له أن يُحدِّث عن قوم مضى عليهم آلافُ السنين! فالحق أن تعترفوا أنَّه من عند الله أو تصمتوا.

٧-٧ كثيرًا ما يُدلِّل القرآنُ على بشريَّة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأنَّه بشرٌ عاشَ ويعيش بينَهم يعرفون حَسَبه ونَسَبه وبشريتَه، وأن ما جاء به من عند الله، ولم يكن لديه عِلْم بما جاء به؛ قال الله: (وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)، وقوله: (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)[الشورى: ٥٢]، (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)[العنكبوت: ٤٨]؛ فالقول الفصل أن ما جاء به النبي محمد -عليه الصلاة والسلام- هو وحي مُنزَّل من عند الله.

٨-٨ أسلوب التشويق القرآنيّ؛ فقبل شروعه في عرض قصة يوسف وتفاصيلها؛ مهَّد لها مُشوِّقًا بوصفه لها قائلًا: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)؛ وهذا أدعى لشد القارئ لها، وأجذب للسامع لتدبُّرها.

٩-٩ كل قَصَص القرآن جميل، وكذا ما ورد في صحيح السُّنَّة النبويَّة من قصص، وفي كلها العِبَروالحِكَم؛ إلا أن قصة يوسف لها طابعها الخاص وجمالها الفريد؛ فوُصِفَتْ بـ(أَحْسَنَ الْقَصَصِ)، والحُسْن الذي فيها ليس مقتصرًا على وقائعِها ومَشاهِدِها، بل ما حوته من لطائف وجمعته من أسرار وحِكَم؛ مثل: تدبير الله الحكيم الخبير، ولُطفه الدقيق الخفي، وتنوُّع أحداثها، معالجتها لقضايا عديدة، وبيان عاقبة الإحسان والتقوى، وثمرة العفة والصبر، وقِيَم التواضع والبِرّ والصلة، وأهميَّة التمسك بالمبادئ والثبات على القِيَم، ووجوب صَوْن العِرْض وحِفْظ الشَّرف، وظروفك السيئة لا تُعيقكَ عن دعوتك، واحترام المشاعر ومراعاة الضمائر، وسلامة الصدر، والعفو عند المقدرة، وغيرها.

المحطة الثانية

يوسف والرؤيا

١٠-١ حُسْن الأدب الذي تمتَّع به يوسف وتربَّى عليه، ولا غرابةَ؛ فهذه نتاج النبوة ومُخرَجاتها، وهذا بَيِّنٌ من خلال ندائه لأبيه: (يَا أَبَتِ)، وهكذا ينبغي أن تكون بيوت أتباع الأنبياء والرُّسُل عمومًا والدعاة إلى الله -أيضًا-.

١١-٢ في الغالب أن الأطفال يجدون مع أمهاتهم قربًا عاطفيًّا وأمانًا نفسيًّا يُمكِّنهم من رواية أسرارهم وسرد قصصهم، ويتيح لهم من بثّ همومهم وأحزانهم، وما يعترضهم في حياتهم اليوميَّة من مواقف وأحداث؛ لكنَّ موضوعًا بمثل رؤيا يوسف فليس من المناسب أن تُقَصّ إلا للأب؛ فهو الأجدر على تأويلها وتفسيرها، والأعلم بتوصيفها وكيفيَّة التعامُل معها: (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ).

١٢-٣ في الآية دليل على نجابة يوسف وذكائه منذ صِغَره؛ كونه أدرك أن هذه الرؤيا ليست عاديةً، وأنها يجب أن تُقَصَّ ليدرك كنهَها ويعرف مقاصدَها وتأويلَها، وكونه -أيضًا- أحسَن اختيارَ مَنْ يَقُصّ رؤياه عليه وهو أبوه.

١٣-٤ إعجاز القرآن الكريم في استعماله رأيتُ في قوله: (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ)، بدلًا من أرى؛ فاستعمل هنا الفعل الماضي؛ كون الرؤيا حدثت وانتهت. ثانيًا: لأنَّه لم يرها سوى مرة ولم تتكرر له؛ لكنَّه لمَّا تحدَّث عن رؤيا الملك: (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ)، استعمل هناك الفعل المضارع؛ لأن رؤيا الملك تكررت عليه عدة مرات.

١٤-٥ نلاحظ أن السورة لم تتعرَّض لأُمّ يوسف، وأمه هنا هي: (زوجة أبيه؛ فأُمُّه تُوفِّيت في صغره كما ذكرَه غيرُواحد)، وليس لهذه حضور أو دَوْر سوى مرتين:

الأولى: في بداية القصة، وذُكِرَت كنايةً في سياق قَصِّه رؤياه؛ (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)، وهو بمثابة الوعد والغاية.

الأخرى: في خاتمتها عند دخولها ويعقوب على يوسف؛ (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا)، وهو بمثابة الوفاء والنتيجة.

والسر في ذلك أن القصة أحداث ومواقف، والقرآن لا يُحيِّذ إظهار المرأة وحَشْرها فيها، وهذا بخلاف ما لو كان الأمر متعلقًا بأحكام المرأة وحقوقها وواجباتها؛ فحضورها كثير في القرآن والسُّنة، بل سُمِّيت سورة كاملة بسورة (النساء).

٦-١٥ دقة ألفاظ القرآن التصويرية؛ حيث استعمل لفظتين؛ الأُولى: (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)، والثانية: (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا)، والفرق بينَهما أن ساجدينَ حال قصه الرؤيا، وسُجَّدًا حال تحققها؛ فاستعمل لفظة ساجدين وهي اسم فاعل لتدل على ثبوت الفعل؛ أي رآهم في وضعية السجود؛ بينما استعمَل لفظة (سُجَّدًا) وهي حال؛ أي رآهم حال سجودهم في مشهد متكامل متحرك؛ حيث رآهم وقوفًا، ثم لَمَّا خرُّوا للسجود، ثم سجدوا.

٧-١٦ فَهْمُ يعقوب -عليه السلام- العميقُ من خلال رؤيا يوسف التي قصَّها عليه أن مستقبلًا مُشرقًا ينتظره؛ (يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ...)؛ لذا بادَر بتحذيره من إفشاء رؤياه وعدم قصِّها على إخوته.

٨-١٧ كان من حكمة يعقوب أنَّه لم يُفسِّر الرؤيا لابنه؛ خشيةَ أن يتحمَّس الطفل فيقُصّها لغيره أو يمارس سلوكًا يناقضها ويَحرِف مسيرتَها، (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...)، بل أخبره أن الله سيجتبيه دون تفصيل لذلك الاجتباء، ولكن للأسف طفولة يوسف غَلَبت عليه فأغفَل توجيهَ أبيه؛ فقصَّ رؤياه على إخوته؛ فوقع ما كان يخشى.

٩-١٨ تدلل الآية أن يوسف عند رؤياه لم يكن قد أصبح نبيًّا؛ لأنَّها استعملت الفعل المضارع (يجتبيكَ)، و(يُعَلِّمُكَ) قال الله: (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)، ولم تَستعمِل الفعلَ الماضيَ اجتباكَ وعلَّمَكَ؛ فتفيد أن النبوة قد أُعطِيَتْ له.

١٠-١٩ كان يعقوب -عليه السلام- يدرك سوء تعامل أبنائه مع يوسف وأخيه، هذا قبل عِلْمهم برؤياه؛ فكيف لو علموها! وهذا -بالتأكيد- سيزيد من عداوتهم، ويوقد شرارة حسدهم، وكونه صغيرًا ربما لا يدرك خَطرهم، ولا عاقبة مكرهم ومآل إخبارهم برؤياه؛ لذا حذَّره من قصها؛ (لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا).

١١-٢٠ الأخذُ بالتدابير عبادةٌ، وبذلُ الأسبابِ مشروعٌ، وهو من الإيمان والتوكل، ولا ينافيهما، ومن ذلك قول يعقوب -عليه السلام- لابنه يوسف: (لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)، وتوقُّعه هذا مبنيّ على معرفته من سابق عِشْرتهم السيئة، والعبد مُطالَب أن يتقي الشر وأسبابه، ويأخذ احتياطاته لدفعها، وأن يطلب الخير ويسلك طرقه، وهذا لا يتعارض مع عِلْم الله السابق وما كتبه وقدَّره في لوحه المحفوظ.

١٢-٢١ لم يخشَ يعقوبُ -عليه السلام- على يوسف بعد رؤياه من أصدقائه وجيرانه كخشيته عليه من إخوانه؛ (لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)؛ فهو يدرك أن عداوة القريب الحاسد أشدُّ مَضرَّةً وأنكى جُرحًا من الجيران والأصدقاء الأباعد.

١٣-٢٢ مع علم الأب بعداوة أبنائه وحقدهم على أخيهم يوسف؛ إلا أنَّه ردَّ ما يحملونه لأخيهم من كُرْه أنَّه نزغٌ من الشيطان و إفسادٌ منه؛ فنَسَب شرَّهم له، وجعَل مكيدتَهم من إملائه؛ (إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)؛ ولهذا كان يُخشى أن يستغلَّ الشيطانُ ما في نفوسهم من حسد فيُملي عليهم كيدًا فاجرًا؛ فيستجيبون له فيُلْحِقُون ضررًا كبيرًا بيوسف -عليه السلام-.

١٤-٢٣ بينما يعقوب -عليه السلام- يعيش فرحةً غامرةً يزرع الأمل ليوسف ويُصوِّر له مستقبله الجميل، مما جعله يحيطه بلُطْفه وحنانه واهتماماته؛ لم تُنْسِه فرحته إشعار ابنه أن هذا الفضل عطاء من الله ومنَّة منه؛ (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)، وهذا أسلوب تربويّ؛ فمن المُهم تربية الطفل على شُكر الله، وردّ كل فضل له وإليه؛ ليُحْمَد بما هو أهله، وفعلًا تعلَّم الطفلُ ذلك حتى صارت ثقافتَه شابًّا وكبيرًا وسُلطانًا، ومن شواهد ذلك قوله: (ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)، وقوله: (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ).

١٥-٢٤ خُتِمَت آية الاصطفاء والاجتباء والتعليم اللَّدُنِّي بقوله -سبحانه-: (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)؛ نعم؛ فهو -سبحانه- العليم بمن يصلح لرسالته وفضله، الخبير بمن هو أهلٌ لها؛ (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ)، ومنه قولُه: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[الأنعام: ١٢٤].

المحطة الثالثة

يوسف وخطة التَّخلُّص منه

١-٢٥ الشخصيَّات التي برزت في قصة يوسف وأدوارها المختلفة في أماكن وأزمنة مختلفة؛ والتي منها؛ (يوسف وإخوته، والقافلة، والعزيز وامرأته، والسجن، وغيرها)، ليست إلا أسبابًا وقعت؛ ليُحقِّق اللهُ بها أمرًا كان مفعولًا، وهو تولِّي حُكم مصر وإمساك زمام أمورها؛ ليُمكنه ذلك من إصلاح معتقَدِها، وتحويل ديانة أهلها من عبادة آمون الكبيروما يتبعه من آلهة متعددة إلى دين التوحيد الخالص، وكذا إصلاح شؤونها السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والإداريَّة؛ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ).

٢-٢٦ القصة غنيَّة بالآيات والعِبَر، محفوفة بالدروس والحِكَم، مليئة بالمواعظ والأسرار؛ قال الله عنها: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)، ومَنْ تتبَّع هذه القصةَ يجدها فعلًا مدرسة تربويَّة متكاملة، تعالج كثيرًا من القضايا الإيمانيَّة والفكريَّة والسلوكيَّة والأخلاقيَّة والاجتماعيَّة، وتفكُّ عقدَ الكثير من المشكلات الاقتصاديَّة والسياسيَّة والحقوقيَّة.

٣-٢٧ كان مُسوِّغ نقمة إخوة يوسف على يوسف -كما زعموا- هو حُبّ أبيهم له وتفضيله عليهم؛ (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا)، وهي شُبْهة زرعها الشيطان فيهم؛ ليُوقِع بينَهم العداوةَ والبغضاءَ.

٤-٢٨ لا نُسلِّم لإخوة يوسف أن أباهم قد حَافَ عليهم، أو جَانَبَ العدلَ بينهم؛ لكننا نُسلِّم أن رعايةً خاصةً كانت ليوسف لسببين:

أولها: لصِغَر سِنّه، ومثلُ هذا طبيعيٌّ لطفل في مثل سِنّه فَقَدَ أُمَّه صغيرًا. والآخَر: للاصطفاء الذي ينتظره، كما فسره يعقوب -عليه السلام-؛ فكان الحرص عليه والاهتمام به أمرًا مطلوبًا من جهةٍ، وطبيعيًّا من جهة أخرى.

٥-٢٩ الجرأة الكبيرة والجفاء الواضح والتعامل الفَظّ الذي كان يتَّصف به إخوة يوسف مع أبيهم، وشواهد ذلك كثيرة، منها؛ كَذِبُهم عليه بأنه يجامل يوسف على حسابهم، المسرحيَّة الهزليَّة التي امتهنوها لإقناعه بخروج يوسف معهم، وصفهم له: (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، وقولهم: (إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)، وغيرها.

٦-٣٠ عُمْق البلاغة القرآنيَّة في قوله: (اقْتُلُوا يُوسُفَ)؛ حيث لم يقولوا: اقتلوه؛ حتى لا يُفهَم أنهم يقصدون أباهم، كما أنهم لم يقولوا -أيضًا-: اقتلوا أخاكم؛ حتى لا يثيروا حفيظة الأخوَّة وعاطفتهم نحوَه، وهذا ما لا يريدونه؛ لأنَّه يتنافى مع ما يُخفُونه من كراهية له، ويُعارض ما يدبرونه من مكيدة.

٧-٣١ كان الخيار الأول؛ إمَّا القتل المباشر أو الإبعاد، والنتيجة لكليهما موته والتخلص منه؛ (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا)، فأرض هنا وردت نكرة؛ أي أرضًا بعيدةً ليس فيها حياة ولا نجاة؛ وبالتالي نهايته حتميَّة؛ موته وهلاكه.

٨-٣٢ تأمل الحدَّ الذي بلغ بإخوة يوسف، وخُبْث نفوسهم، وقسوة قلوبهم على أخيهم الصغير! حيث كان اقتراحهم الأول هو قتله؛ (اقْتُلُوا يُوسُفَ)، لولا أن أحدهم صرَفهم عن جريمة القتل إلى جريمة أقل، وهي إلقاؤه في الجُبّ؛ (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ).

٩-٣٣ قوله: (وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ)، الجُبّ يختلف عن البئر؛ إذ البئر ما كانت بحفر بني البشر، وقُصِدَ من حفرها الحصول على الماء وتجميعه فيها والنضح منها؛ بينما الجُبّ حفرة ليست مِنْ فِعْل بني البشر، ولا مبنيَّة بجدار، وقد يكون فيها ماء وقد لا يكون، وتُستعمَل للسجن والحجز وغيره.

١٠-٣٤ إذا توغَّل الحسد في الصدور فلا يعرف صاحبه وقتها قرابةً ولا رحمًا، ولا يفرق حينَها بينَ صغيرٍ ولا كبيرٍ، ولا يقدِّر صداقةً ولا جوارًا، بل تضيع معه كل القِيَم الإسلاميَّة والمعاني الإنسانيَّة، لذا لا تَعْجب أن يَحمِل الحسدُ صاحبَه على القتل، وما هو دونه وأكبر، (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا).

١١-٣٥ الحسد صُوَره مُتنوِّعة؛ فليس بالضروري أن تُحْسَد على مالٍ أو سُلطةٍ، بل قد تُحْسَد على مزاياك الجميلة، ومآثرك الحسنة، وأخلاقك النبيلة، أو مستقبل جميل ينتظرك؛ وبمعنًى آخر قد يحسدونك؛ لأنهم لا يشبهونكَ أو لا تشبههم.

١٢-٣٦ في الحكمة العربيَّة: «كل شاة مُعلَّقة برِجْلِها»؛ فلو سلَّمْنا جدلًا لإخوة يوسف أن أباهم مَالَ ليوسف أو جَانَبَ العدلَ مع إخوته، وأن تفضيله عليهم ليس له مُسوِّغ؛ (لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا)؛ فإن سلمنا لهم ذلك؛ فما ذنب يوسف حتى يُنزِلُوا به تلك العقوبة! فالمذنب على توصيفهم هو أبوهم؛ (أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)؛ فكيف يَحمل الصغيرُ وِزْرَ أبيه يعقوب -عليه السلام-!

١٣-٣٧ كان الخيار المطروح هو قتل يوسف، وهو المقترَح الأول؛ حتى يتفردوا بودِّ أبيهم ويستأثروا بقُرْبهم منه؛ لكنَّ أحدهم لم يَستحسنها، وأشار عليهم بتغييبه في الجُبّ، وإبعاده عن أبيهم، وهنا يتحقق لهم مقصودهم بأخف الطُّرق؛ (يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ).

١٤-٣٨ كانوا يمكرون الليل والنهار ليُخْفُوا اسمَه، ويطمسوا مآثرَه، ويُغيِّبوا آثاره، ويعيقوا مستقبلَه، ونسوا أنَّ لُطْف الله الخفي يصاحب يوسف، وأن مكر الله محيط بهم، وسيُحْبِط مكرَهم، وليس مكرهم بيوسف إلا رفعةً له وشقاءً عليهم؛ (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ)، وهو ما اعترفوا به مؤخَّرًا؛ (تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ).

١٥-٣٩ إدراك إخوة يوسف شناعة فِعْلهم وجُرْم تصرُّفهم؛ بدليل أنهم مَنَّوْا أنفسهم بالتوبة من الذنب قبلَ إقدامهم عليه؛ (وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)؛ لكنَّ حِقْدهم الذي ملأ قلوبهم، وغيظهم الذي فاضت به صدورُهم؛ دفَعَهم على الجريمة وأنساهم عواقب البغي الوخيمة.

١٦-٤٠ كان جميع إخوة يوسف بنفس السلوك؛ فالكل يتظلَّم، وجميعهم شارك في نَسْج المؤامرة والتخطيط لها؛ لذا تجد القرآنَ دائمًا ما يُعبِّر عنهم بضمير الجميع؛ (قالوا، وجاؤوا، وأجمَعُوا).

١٧-٤١ كان إخوة يوسف يدركون تخوُّف أبيهم عليه؛ بدليل أنَّه لم يكن يَسْمح بخروجه معهم؛ وهو ظاهرٌ في قوله: (يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ).

١٨-٤٢ في قولهم: (لَا تَأْمَنَّا) لفتة مهمة؛ حيث إنهم لم يقولوا: (لا تأمن على يوسف معنا)، وتوجيه ذلك من أمرين:

أولًا: لإدراكهم أن خوف أبيهم منهم على يوسف، وليس خوفًا من يوسف على نفسه. ثانيًا: للعتب عليه واستفزاز مشاعره بأن تخوُّفه في غير محله، ليأذن له بخروجه معهم، وسؤالنا ناتج من حرصنا عليه ونصحنا له، وليس سوى تظاهُر منهم؛ ولذلك دفعوا تخوفه وشكوكه بقولهم: (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)؛ أي لن يضره شيء معنا، وسنحفظه من أيِّ شيءٍ، ونصونه من أي خطر.

١٩-٤٣ قوله: (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ)، في ظاهر طلبهم أنهم لم يطلبوا خروج الأخوين الشقيقين للَّعب معهم؛ إذ نقمتهم على يوسف خصوصًا بعد الرؤيا، وعليه فالخطة تدور حوله، كما أن في خروج بنيامين الشقيق ليوسف إعاقة لتنفيذ مخططهم، وهم بعد ذلك بين أمرين أحلاهما مُرّ: فإمَّا أن يقتلوه معه حتى لا يُكشَف أمرهم، ومغبة أن يتخلصوا من اثنين كبيرة، والخيار الثاني: يتركوه فيكشف جريمتهم.

٢٠-٤٤ استئذانهم أباهم بخروج يوسف معهم ليس سوى تظاهُر منهم له بالبر والطاعة؛ ولأخيهم بالعطف والشفقة؛ وقصدهم هو إزالة الشكوك حولهم؛ (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)؛ فلو أخذوه دون عِلْمه لكانوا محل تُهمة يقينًا.

٢١-٤٥ لا يَغُرَّنَّكَ مِن بعضهم حُسْن كلامه وتَصنُّعه للخير والإحسان؛ فربما يُبطِن الكيدَ ويُخفي المكرَ؛ فإبليس قال: (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى)[طه: ١٢٠]، وهؤلاء قالوا: (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

٢٢-٤٦ وَعَدُوا أباهم بحفظه؛ (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، وقد أخفوا مكيدتهم، ووعدوه برعايته وصوَّروا أنفسهم أنهم نَصَحَة له؛ (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)، وقد بَيَّتُوا المكرَ والخيانةَ والإضرارَ به.

٢٣-٤٧ رغم إدراك يعقوب -عليه السلام- خِسَّة أبنائه ونِقْمتهم على يوسف؛ إلا إنه لا يزال يُبرِّرلهم؛ وأن تخوُّفه من ذهابه معهم خشيةَ أن يغفلوا عنه لسببٍ ما، وربَّما وجَد الذئبُ فرصتَه لأكله، (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)، وإن كان يدرك أنهم الخوفُ نفسُه والخطرُعينُه.

٢٤-٤٨ تفاءَلْ بالخيردائمًا، و انطق به، ولا تتوقع السوء؛ فو اقعك هو توقُّعك، والله يحب الفأل ويكره التشاؤم، وكُنْ حَسَنَ الظنّ بالله، فيعقوب هنا توقَّع الذئب ليوسف؛ (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)؛ فكادوا له وجعلوا الذئب متَّهَمًا، ومع أخيه بنيامين هناك استثنى يعقوب قائلًا: (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)؛ فأُحيط بهم في قضية ليس لهم فيها عَلاقة وكانوا فيها صادقين؛ (وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ).

٢٥-٤٩ لم يقلها يعقوب -عليه السلام- في وجوههم صريحة أنَّه يخشى على يوسف منهم؛ فيُهيِّج حسدَهم، ويوقِد عداوتهم؛ لكنَّه أرجع ذلك المنع لأسباب خارجيَّة؛ (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)، لكن للأسف احترامه لمشاعرهم لم يُجْدِ نَفعًا؛ وكما قيل:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ *** وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

٢٦-٥٠ نتَج من تخوُّف يعقوب -عليه السلام- على يوسف مِنْ أن يأكله الذئب له حالَ غفلتهم ونسيانه حِفْظ الله له ورعايته، أَنْ فقدَه زمنًا، ناهيكَ عمَّا ترتَّب عليها من تبعات مُحزِنة ومآلات مؤلمة.

٢٧-٥١ بينما كان يخاف الأب على يوسف من عدوّ بعيد لا يرحم، أو من حيوان باطش لا يُشفِق؛ لكن -للأسف- سَلِمَ الطفلُ من كلِّها إلا من إخوته؛ فكان العدو هو الأخ والناقم هو القريب.

٢٨-٥٢ اتخذ إخوة يوسف من تخوُّف أبيهم من أن يأكل الذئب يوسف حال غفلتهم مُسوِّغًا؛ منه مكيدتهم، ورسموا عليه مكيدتهم، ولو لم يُذكر الذئب على لسان أبيهم ربما طال تفكيرهم في إيجاد خطة أو رَسْم حِيلَة لنفيه أو تغييبه.

٢٩-٥٣ على المرء ألا يَبُثَّ مخاوفه وأسراره لكلّ مَن حوله، ولو كانوا أقارب وأصدقاء؛ فقد يقتنصَ مرضى النفوس والحاسدون منهم ثغرة؛ فيدبّرون له من ورائها مكيدة، ويحيكون له من خلالها مصيبة، وقد قيل:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً *** وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةْ

٣٠-٥٤ لم يكن يوسف الصغير يجد منهم حنانًا، أو يلمس منهم لطفًا، وربَّما هذه أول مرة يستأذنون أباهم بخروجه معهم للمتعة والاستئناس والتنزُّه واللعب -حد زعمهم- متظاهرينَ لأبيهم بشفقتهم عليه ورحمتهم به، وهم -في الحقيقة- مُبَيِّتون كيدًا ومُدبِّرون حيلةً ومكرًا كُبَّارًا وجريمةً نكراءَ تنتظره؛ (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ).

٣١-٥٥ كل هذه المؤامرة التي حِيكَت، والمكيدة التي دُبِّرَت، والنوايا السيئة التي أجمَعُوا عليها؛ أطلَعَ اللهُ عليها يوسفَ الصغيرَ قبل تنفيذها؛ (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، وأكبر من هذا أنَّه سيكشفها لهم يومًا؛ (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا)، وفعلًا تحقَّق وَعْدُ الله، وجاء اليوم الذي كُشِفَتْ فيه أوراق بغيهم، وطفَت على السطح مكيدتُهم؛ (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)؛ فبُهِتُوا وقتها، وسُقِطَ في أيديهم.

٣٢-٥٦ السر في مجيئهم في هذا التوقيت ليلًا وليس نهارًا وهم يبكون؛ (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)، عدة أمور:

أ- حتى يُخفوا ملامح الجريمة و آثارها. ب- ليتأكدوا من عدم عودته. ج- ليخفوا قسمات وجوههم الماكرة، وسواد وجوههم بسواد الليل. د- خوفهم من أبيهم فبأيّ وجه يقابلونه. هـ- ليلْفتوا النظر إلى أن تأخرهم كان بسبب مطاردتهم الذئب.

متناسين أن الله مُطَّلِع عليهم، يَعلم كذبَهم وستنكشف يومًا.

٣٣-٥٧ في قولهم: (إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)، ينقض المُسوِّغ الذي من أجله أَخْرجُوه، وهو دليلٌ آخَرُعلى كَذِبهم؛ فهم أخرجوه ليلعب معهم ويلهو، لا ليحرس متاعهم ويلازمها فيتسنى لهم اللعب واللهو دونه.

٣٤-٥٨ بعض الأقوال والأفعال ما تكون دليلًا على كشف كَذِب صاحبها وإسقاطًا لدعواه؛ فإخوة يوسف لما جاؤوا على قميصه؛ (بِدَمٍ كَذِبٍ)، أخذ يعقوب -عليه السلام- من ثوبه السليم دليلًا آخَرَعلى براءة الذئب؛ فلو كان ذئبًا لَمَزَّقَ ثَوْبه؛ حيث رَدَّ عليهم قائلًا: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا)؛ فصار الثوب برهانًا أثبَت كَذِبَهم وكشَف إفكَهم.

٣٥-٥٩ لَمَّا عَلِمَ اللهُ أنَّ قلبَ يعقوبَ -عليه السلام- قد فاضَ بِحُبّ يوسف وتعلُّقه به، أراد امتحانَه و ابتلاءه بأحب شيء إليه؛ فالله لا يحب أن يُنازعه شيء في قلب عبده؛ فقَبْلَه ابتلى الله أباه إبراهيم بذبح ولده إسماعيل -عليهما السلام-؛ فنزل فداؤه بعد استسلامهما للأمر.

٣٦-٦٠ من السُّنَّة أن يسترجع العبد إذا نزلت به مصيبة، وأن يردّ أمره إلى مولاه، ويستعين به في كل بلاء ونازلة وكَرْب، وهذا ما فعَله يعقوب -عليه السلام-؛ (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ).

المحطة الرابعة

يوسف والقافلة

٦١-١ إذا أراد الله أمرًا هيَّأ له أسبابه وقدَّر ظروف وجوده؛ فانظروا هنا كيف ساق الله قافلةً في طريق الجُبّ الذي فيه يوسف، وقدَّر عليها العطش؛ ليُحْوجَها لوُرُوده ليستقوا منه؛ (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ)، في توقيتٍ عجيبٍ، يشهد على لُطْفٍ خفيّ وتدبيرٍ حكيمٍ؛ فيوسف -وقتَها- في جُبِّه بأَمَسِّ الحاجةِ لمُنْقِذٍ، ولو قُدر أن القافلة تأخرت عن موعدها الذي جاءت فيه؛ لكان مَوْته محقَّقًا غرقًا أو جوعًا، أو غير ذلك.

٦٢-٢ مِن لُطْف الله بيوسف حين ألقاه إخوته في الجب أنَّه لم ينزل في الماء فربما غرق؛ لكنَّه كان -فيما يظهر- على حافة الماء، فما إن أدلى الساقي دلوه حتى تشبَّث به، فَجَرَّه وَارِدُهم ظنًّا منه أنَّه ماء فكان غلامًا؛ فصاح: (يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)، كما أن من لطف ربه به أنَّه لم يكن نائمًا أو مُغمًى عليه، فلو كان نائمًا أو مغمًى عليه لما تعلق بدلو الساقي، واستقوا ثم ذهبوا.

٦٣-٣ من شدة كراهيتهم ليوسف أنهم لم يعودوا لمنزلهم مباشرةً بعد تغييبه في الجُبّ؛ بل تأخروا ليتيقَّنوا من عدم عودته حتى لا يُكشَف مَكْرُهم؛ فقد كانوا يخشون حدثًا يُقَدِّرُ اللهُ من خلاله عودتَه، ولم يعلموا أن تدابيرَ إلهيَّةً و أقدارًا ربانيَّةً يُسَيِّرها الحكيم الخبير ليبلغ به شأنًا ويرتقي مكانًا.

٦٤-٤ يظهر أن إخوة يوسف لم يكونوا بمَنْأًى من الجُبّ، بل كانوا قريبين منه متربصين؛ ليتأكدوا من مصير يوسف؛ لذا لَمَّا صاح الساقي: (يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)، سمعوه فأقبَلوا على القافلة، وأعلَمُوهم أنَّه لهم وعرضوا عليهم بيعَه.

٦٥-٥ حين فاوَض إخوةُ يوسفَ القافلةَ على بيعه، لم يعترض يوسف أو يتجرَّأ فيخبرهم بقصته وحاله، أو طلبهم ردهُ لأبيه؛ خشيةَ أن يقتلوه أو ينزلوا به عقابًا أكبر مما قد فعلوه به؛ لذا اختار أن يُبَاع ويرحل مع مَنِ اشتراه تاركًا موطنَه ووطنَه.

٦٦-٦ لم يطلب إخوة يوسف ثمنًا باهظًا في يوسف؛ (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)؛ فلم يكن عندهم مُهِمًّا، بل كان هَمًّا يجب التخلُّص منه؛ فمَن أجاز قتلَه أو جَعْلَه في الجب لا يهمُّه أن يُبَاع وبأيّ ثمن، ولم يكن همُّهم هو ثمنه، بل نفيه حتى ولو أعطوه للقافلة دون مقابل.

٦٧-٧ رأت القافلة في يوسف ذكاءً ونباهةً وحسنًا وإحسانًا، ناهيكَ عن جَمال الخَلْق والخُلُق الذي كان يتمتَّع بهما؛ ممَّا جعلهم يطمعون فيه ثمنًا باهظًا؛ فعرضوه لعزيز مصر فاشتراه منهم؛ فطفلٌ مثل يوسف الكريم لا يصلح إلَّا أن يكون في بيت مَلِك أو بيت عزيز، ولا يُبَاع إلا لمثلهم رغبةً في عطائهم ومقامهم.

المحطة الخامسة

يوسف في بيت العزيز

١-٦٨ من فضل الله على يوسف أنَّه لم يُبَع في سوق النخاسة ولا العبيد؛ فيتعرَّض للذُّلّ والمهانة والاسترقاق كما يتعرَّض غيره؛ و إنَّما أراد الله مما جرى أن يبلغ به درجات عالية وأماكن رفيعة؛ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ).

٢-٦٩ لما اشترى عزيزُ مصرَ يوسفَ رأى فيه من الخصائص والمزايا ما جعله يُوصي أهلَه بإكرامه؛ (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ)؛ فمثله يُرْجى نَفْعه أو يُتَّخذ ولدًا؛ فلا يصح أن يُعامَل معاملةَ العبيد، ولا هو رقيق كالرقيق.

٣-٧٠ كل هذه الأحداث ليست بمنأًى عن عِلْم الله ولُطفه؛ فهو المُدبِّر بلطف الحكيم بعلم؛ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ)، وما جرى في هذه المرحلة وما سبقها؛ هو تمهيد لمستقبل جميل، وإرهاصات لقادم أفضل ليوسف.

٤-٧١ لَمَّا تحدَّث الله عن بلوغ يوسف -عليه السلام- قال: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)؛ بينما لَمَّا تحدَّث عن بلوغ موسى -عليه السلام- قال: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)، وسرُّ ذِكْر القوة لموسى -والله أعلم- أنَّه أُرسِلَ لقوم مستضعَفينَ تحتَ طاغية متكبر جبار فناسَب أن يظهر موسى بمظهر القوي المخلِّص؛ بينما لم يوصف يوسف بذلك لأن موقعه ومهمته -عليه السلام- لم تكن لتحتاج لمواجَهةٍ وتحدٍّ أو مقابلة واستعراض.

٥-٧٢ من أراد عطاء الله وفَضْله وهِبَاته فطريقها الإحسان؛ (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

٦-٧٣ لا زال البلاء بيوسف الكريم يرافقه في حِلّه وترحاله، فلا يكاد يخرج من بلاء حتى يتعرَّض لآخَرَ؛ فمن بلاء عداوة إخوته له، إلى بلاء إبعاده عن والديه وفِقدانه لهما، إلى بلاء تغييبه في الجُبّ، ثم إلى بلاء بيعه عبدًا وشرائه، واليوم في بيت العزيز يتعرَّض لبلاء من نوع آخر؛ إنه بلاء في العفة والشرف، وامتحان في العِرْض والأخلاق؛ حيث راودته امرأة العزيز سيدته؛ (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ).

٧-٧٤ عقَّب الله بعد قوله: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)، في الآية التي بعدها بـ(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)؛ يُفْهَم من السياق أن امرأة العزيز كانت تُراقب حاله وتنتظر بلوغَه وتمامَه؛ لتلبية حاجتها وإشباع رغبتها، فلمَّا بلَغ ذلك راودته.

٨-٧٥ حين تكون الداعية للفاحشة السيدة لمن هو في بيتها؛ (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)، يكون الأمر صعبًا والخَطْب كبيرًا؛ فربما صاحَب رغبتَها الجامحةَ فيه سُلطتُها عليه ومِنّتُها له، وذلك مدعاة لاستعمال صلاحيتها كسيدة له، مع غُربته وفُتوّته، كما أن في عدم استجابته لها يعني مستقبلًا سيئًا ينتظره ومصيرًا أليمًا يستقبله.

٩-٧٦ ليس في كل مرة الرجال هم مَن يُفْتَنُون بالنساء أو يتحرّشون بهن؛ بل المرأة -أيضًا- تُفْتَن بالرجال وتتحرَّش بهم؛ فامرأة العزيز هي من افتُتِنت بيوسف وتحرَّشت به، ولهذا جاء الأمر في سورة النور بوجوب غضّ النظر من الجنسين.

١٠-٧٧ في ظاهر الآية يتبين أن امرأة العزيز قد حاولت مرارًا مع يوسف؛ حيث استعمل القرآن لفظة: (وَرَاوَدَتْهُ)؛ أي حاولت فيه بطريقة ناعمة وغير مباشِرة؛ فلما لم يستجب لها ولم ينجرَّ، سلَكَتْ طريقةً أكثرَ صراحةً وعزمًا، حيث غلقت الأبواب ثم أقبلت إليه وقالت: هيت له؛ قال الله عنها: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ).

١١-٧٨ في لحظة المُرَاوَدَة يُثْبِت القرآن أمرين: إثباته دعوة زوجة العزيز له، وأنها مَنْ راودته؛ (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)، كما يُثْبِت براءة يوسف و أنَّه لم يستجب لها؛ (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ).

١٢-٧٩ كل شيء كان أو يكون أو لا يكون هو بمشيئة الله وإرادته، ولا يخرج شيء في كونه وخَلْقه عن سلطانه وقهره وعِلْمه؛ فبالرغم من أن امرأة العزيز اتَّخذت كل التدابير للفاحشة؛ من التهيئة النفسيَّة والجسديَّة؛ كحُسْن الكلام، وإظهار الزينة، ثم السلامة الأمنيَّة؛ كإغلاق الأبواب وإحكامها؛ إلا إنها لم تَبلُغ مرادَها؛ لأن الله لم يُرِد ذلك؛ فقد صان يوسفَ من معصيته وحَفِظه.

١٣-٨٠ المخْلِصون هم وحدهم مَن يستحقون صَوْن الله لهم من الوقوع في شباك الشيطان ومهاوي الردى، ومنهم أنبياؤه ورسله والمتقون؛ فلا تزال عنايته تحيطهم من أن يُدَنِّسوا أنفسهم برذيلة، أو يتلطخوا بفاحشة، وهذا ما حصل ليوسف -عليه السلام-؛ (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)، واستعمل ضمير المتكلم وهو الذات الإلهية في قوله: (لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ)؛ ليدل على أن الله من الخطيئة حصَّنَه، وعن السوء صرَفَه.

١٤-٨١ إذا وَقَر خوفُ الله في قلب عبد، وعُمِّر بالإيمان والحياء والعفَّة؛ فلا سبيل للشيطان عليه، ولا مدخل للهوى في معصية الله؛ حتى لو كانت سهلة وميسَّرة ومأمونة، وكان الداعي لها صاحبَ فضل، وذَا سُلطة.

١٥-٨٢ امرأة العزيز لم تكتفِ بدعوة يوسف للفاحشة فقط؛ لأنَّه قد يستجيب لها، وقد يتعفف عنها؛ بل اتخذَتْ كلَّ الوسائل الأمنيَّة والتدابير الاحتياطيَّة؛ لذا جاء القرآن بلفظة: (وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ)؛ فيظهر من شدة تدابيرها أنَّها دعته لغرفة خاصَّة، يَحُول دونَها أبواب كثيرة وحواجز عديدة:

أولًا: حتى لا يفْلت منها. وثانيًا: لا تُسْمَع أصواتهما حالَ مراودتها له. وثالثًا: حتى لا يدركهما من سمعَهما وأراد الوصولَ لهما.

١٦-٨٣ في قول امرأة العزيز: (هَيْتَ لَكَ)؛ دلالة على حرصها البالغ وعزمها على إيقاع يوسف العفيف فيما دعَتْه له؛ من خلال إعدادها الوسائل المُهيِّجة والمغرية، وكذا دقة تدابيرها لتأمين المكان والحال والزمان.

١٧-٨٤ قد يظن البعض أن يوسف الكريم قد همَّ بامرأة العزيز، و انساق لدعوتها، مُفتَتَنًا بجَمالها مغترًّا بحسنها، والصواب -والله أعلم- أنَّه لم يلتفت لها؛ فالله صَرَف عنه كيدها لَمَّا وجَد قلبَه ممتلئًا بخشيته وتقواه، وتقديره لإحسانه وإحسان سيده، وهذا بيِّنٌ في قوله: (مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)، ولو لم يمنعه ربُّه ربما ضَعُفَ قلبُه وغلبَتْه شهوتُه، وهَمَّ بها.

١٨-٨٥ الإيمان من أقوى سبل الوقاية من الوقوع فيما حرَّم الله، وممَّا يقي المرء -أيضًا- من الوقوع في هذه الرذائل شرف المرء وشهامته ونُبْله وطيب أصله وحفظه للمعروف؛ فكل هذه تصون المرءَ أن يُلوِّث سُمعتَه وعِرْضَه مما يتنافى معها؛ فامرأة العزيز لَمَّا راودته تذكَّر يوسفُ إحسانَ ربه إليه ومعروف سيده نحوه؛ (مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ).

١٩-٨٦ لم تُطِق امرأة العزيز صبرًا، ولم يُوقفها رَفْض يوسف طلبها الذي ربما قَبِله الكثير-نسأل الله العافية-، ولم تيأس، بل جعلَتْ تطارده وهو يهرب منها، وحتى تُمسك به جعلت تجذب ثيابه من دُبُره حتى قدَّته؛ (وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ)؛ أي: قطعته.

٢٠-٨٧ أفشل يوسفُ برفضه خطةَ امرأة العزيز المفتونة به، ولم يقتصر على ذلك؛ بل لاذ بالهرب منها، وأُجهضت العَمليَّة برُمّتها حين أَلْفَيَا سيدَها لدى الباب حال هروبه منها وملاحقتها له؛ (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ).

٢١-٨٨ في قوله تعالى: (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ)، نجد أن الله ربط سيادة العزيز بامرأته، وليس بيوسف أو لكليهما، وتفسيره يعود لأمرين:

أحدهما: أن المقام مقام محاسَبة وهي من ظهرت متلبسة، والعزيز هو القائم السيد.

ثانيهما: أنهم لم يكونوا يعاملون يوسف معاملةَ العبيد حتى يصبح عبدًا وهم أسياده؛ بل كان بينهم مكرَّمًا معزَّزًا يخالطهم كولد لهم؛ كما رجوه مِنْ قبلُ؛ (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا).

٢٢-٨٩ أن يذنب العبد فيعترف ويتوب فذلك حَسَن، لكن أن يُذنب فيُنكر ذنبه فتلك مصيبة أخرى، أمَّا أن يُذنب ثم يرمي بذنبه بريئًا فقد احتمل بهتانًا و إثمًا عظيمًا؛ فامرأة العزيز بينما هي تُلاحِق يوسفَ وهو يفتح الأبواب هربًا منها، وهي تتبعه وتجذبه من الخلف لترده إليها؛ كانت المفاجأة الكبرى حين ألفَيَا سيدَها لدى الباب المتجهان إليه؛ فتسارع السيدة بتبرئة نفسها، ملقيةً بالتهمة على يوسف ومتسائِلةً بكل وقاحة: (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا)، ولم يقف الأمر هنا؛ بل أصدرت بحقه عقوبة عاجلة: (إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

٢٣-٩٠ حين يكون معيار الحكم النُّفوذ والجهل والغرور، فإن العدل والقسط وقتها يختلّ، والحق والإنصاف يغيب، وحين لا يكون للشرع والقانون والمروءة حضور يصبح الظالم شاكيًا وبريئًا ومُدَّعيًا عامًّا، بل وقاضيًا وجلَّادًا وسجَّانًا، وهو مَن يرفع الدعوى ومَن يُنفِّذ الحكم وهو من يُبطله.

٢٤-٩١ أن تستغله في بيتها فتدعوه للمعصية خسةٌ، أن يهرب منها ويرفض الفاحشة وهي تتبعه وتشق ثيابَه جرأةٌ، أن ترمي بالتهمة عليه حين ألفيا سيدها لدى الباب وقاحةٌ، أن تقترح العقوبة وتُنزل الحَكَم عليه فذلك الطغيان الكبير؛ (إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

٢٥-٩٢ حين يتعلَّق الأمر بالشرف والعِرْض فليس أمام الإنسان إلا أن يدفع عن نفسه التهمة، ولو كان مَن اتهمه صاحب فضل عليه وإحسان وسلطة وقوة؛ (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)، ولو كان المقابل دفع ضريبة أكبر، والتعرَّض لعقوبة أشد؛ فبراءة العِرْض غايةٌ، والدفاع عنه شَرَف عظيم لا يُستهان به.

٢٦-٩٣ بينما الغريب المتَّهم البريء العفيف يقع في شباك التهمة، وعقوبة تنتظره لا يعلمها؛ جرَّاء مكيدة فاجرة؛ يُقيِّض اللهُ له شاهدًا من قصر العزيز يُبَرِّئه ويُنفِّس عنه كربته بشهادته؛ حيث وضَع علاماتٍ فارقةً يُعرَف مِن خلالها مَن المُراوِد ومَن الشارِد، وبنتيجة أخرى؛ مَن البريء ومَن المُتَّهم؛ (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

٢٧-٩٤ لا أعتقد -والعلم عند الله- أن الشاهد طفل صغير لم يتكلم؛ (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا)؛ لأنَّه لو كان طفلًا لكان في نطقه حجة قاطعة وبرهان دامغ على صدق يوسف وكذب امرأة العزيز، وكذا لم يكن حاضِرًا؛ لأنَّه لو كان حاضِرًا شاهدًا على ما وقع لقطع بشهادته دون أن يعطي مقترَحًا يحمل احتمالين، بل كان شاهدًا كبيرًا وغيرَ حاضر.

٢٨-٩٥ المتتبِّع لسياق القصة يستنتج أدلة كثيرة تثبت براءة يوسف؛ منها:

١- تبرئته نفسه وتكذيبه لها، وهو المعروف بصدقه وصلاحه وإحسانه؛ (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي). ٢- شهادة شاهد من أهلها؛ (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا).

٣- قول زوجها العزيز لها: (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ).

٤- مضمون الخبر الذي تناقلته نساء المدينة؛ (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ).

٥- اعترافها في مجلسها بحضرة نساء المدينة: (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ).

٦- توعدها له أمامهن؛ (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ).

٧- جواب نساء المدينة لرسول الملك: (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ).

٨- اعتراف امرأة العزيز للرسول: (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ).

٩- وضوح الأدلة القاطعة لدى السُّلطة الحاكمة والمجتمع ببراءته؛ (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ).

٢٩-٩٦ إذا ابتُلِيَ العبد بشيءٍ ثم عُوفِيَ منه؛ فمن المروءة والحكمة طَيّ صفحته وعدم لَوْك الألسن به؛ ففي ذكره إيغال للصدور واستعداء للناس ونبش صفحة الماضي الأليم؛ (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا).

٣٠-٩٧ لم يوصف يوسف بالصِّدِّيق على لسان العزيز في قوله -تعالى-: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)، وكان يعرف صدقه وعفته؛ بينما وصف بالصدِّيق على لسان الساقي في قوله: (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا)، والسر -والله أعلم- أن العزيز في السياق الأول كان غرضه احتواء الموقف وإغلاق القضية وكتمها حتى لا تشاع، ولم يكن همه معرفة مُلابَسات القضية ولا قصده معرفة البريء من المتهم؛ بينما في الثانية المتكلم هو صديق يوسف في سجنه، من عرف عشرته وإحسانه وصدقه وأمانته وخلته؛ لذا وصَفَه بالصدِّيق.

٣١-٩٨ أحيانًا تُستقذَر بعض السلوكيَّات الخاطئة من الناحية العرفيَّة والاجتماعيَّة والعقليَّة دون الناحية الشرعيَّة، ومن ذلك استقذار نساء المدينة ما سمعنَه من مراودة امرأة العزيز فتاها؛ (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)؛ إذ كيف لسيدة أن تراود فتاها وهو لا يساويها في منزلتها؛ فهذا يُسْقِط هيبتها ويُضعِف مكانتها.

٣٢-٩٩ يحكي الله -تعالى- على لسان وصف نساء المدينة لحب امرأة العزيز ليوسف؛ حيث عبَّرْنَ ما وصل إليه حبها له بقولهنّ: (قَدْ شَغَفَهَا)، وفيه بيان حالة التعلق التي وصلت إليه امرأة العزيز، وأن فتنتها به كانت عظيمة وعميقة.

٣٣-١٠٠ من ذكاء امرأة العزيز أنَّها لما علمت أن مراودتها فتاها أصبح حديث نساء المدينة، وهذا -بدوره- يُسْقِط سُمعتَها ويُذْهِب هَيْبتَها؛ رأت أن تستضيف تلك النسوة لتحتوي الأمر وتُوقفه عند حدّه، وتتخذ حيلةً تجاههن تُسْقِطهن معها وتَفْتنهن به كما فُتِنَتْ، وحينها لا مجال للومها ولا مسوّغ لعتابهنَّ؛ (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ).

٣٤-١٠١ جاءت لفظة (وَقَالَ) مُذكَّرة بينما السياق في النساء مؤنَّث؛ والسر البلاغي في ذلك -والله أعلم- أنَّها إذا وردت في سياق مؤنَّث يراد به القلة تأتي بصيغة المُذَكَّر قال؛ بخلاف إن كان العدد كثيرًا فتأتي بصيغة قالت.

٣٥-١٠٢ استعمَل القرآنُ لفظةَ نسوة في قوله: (وَقَالَ نِسْوَةٌ)، وقوله: (فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ)، وهي جمع تكسير، ولم يستعمل لفظة نساء، والتوجيه أن هذه اللفظة تُستعمَل إذا كان العدد قليلًا ومعروفًا، وهو بالفعل ما حصَل؛ فالنسوة اللاتي حضرنَ كنَّ من أشراف نساء المدينة وليس من عموم نسائها، وهذا منطقيّ؛ فزوجة العزيز لن تستضيف إلا مَنْ يساويها في المكانة أو قريبًا منها، وموضوع مثل هذا لا ينبغي أن يقال لكل النساء، وأمَّا استعمال لفظة نساء فتأتي إن كان العدد كثيرًا وعامًّا.

٣٦-١٠٣ نجحَتْ خطةُ امرأة العزيز مع نساء المدينة؛ فاليوم ليست هي وحدَها مَن وقع في الفتنة بيوسف والإعجاب بجَماله؛ فحتى هُنَّ بَهَرَهُنَّ جَمالُه حين رأينَه؛ (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ).

٣٧-١٠٤ يُصوِّر القرآن شدة فتنة نساء المدينة، وانبهارهنَّ بجَمال يوسف؛ فإنَّه لما أُدْخِلَ عليهنَّ استعظمنَه، وجعلنَ يُقطعنَ أيديهنَّ بدلًا من قطع التفاح، وسالت الدماء من أيديهن دون أن تشعر واحدة بالقطع أو بألمه، أو تلفتها الدماء التي تسيل؛ وتكرَّر هذا منهن مرارًا؛ لذا استعمل القرآن لفظة: (وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)، ولم يقل: (قطَعْن)، ووردت مثلها في سؤال رسول الملك لهنَّ: (مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ).

٣٨-١٠٥ وجود الإيمان يَصنع المعجزات ويُولِّد الكرامات، كما أن غيابه يأتي بالخيبات ويجلب الويلات، وهذا واضح في صبر يوسف عن المعصية التي دعته إليها امرأة العزيز واستماتتها في ذلك؛ وبرغم التسهيلات الكثيرة والمغريات العظيمة والدواعي الكبيرة؛ لكنَّه استعصم؛ (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ).

٣٩-١٠٦ حين يَفسَد المجتمعُ تَسُوء أخلاقُه، ويذهب حياؤه، ويُصبِح المنكر غيرَ مُستنكَر؛ فامرأة العزيز توعَّدت يوسف بالسجن أو الصغار إذا ما طاوعها لنفسها؛ (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ)، وكان هذا بحضرة نساء المدينة، ولم يكن محل إنكار منهنَّ ما ذكرته أمامهنَّ من مراودتها له وتهديدها له، إذا هو لم يستجب لطلبها.

٤٠-١٠٧ نلاحظ في قوله: (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ)، أن لفظة (لَيُسْجَنَنَّ) وردت بنون التوكيد؛ بينما لفظة (وَلَيَكُونًا) وردت بدونها، ومردُّ ذلك أن أمر سجنه إليهم وهم قادرون على تنفيذه؛ بينما أمر الصَّغار ليس بيدهم، ولأن إصغاره وإذلاله يتعارض مع ما يريده الله له من رفعة وسلطة وتمكين.

٤١-١٠٨ البعض يتَّخذ من موقف الآخَرين تشريعًا لحكمٍ ما، خصوصًا حين يخدم حكمُ ذلك الموقفِ هَوَاه؛ فامرأة العزيز لما رأت إعجابَ نساء المدينة بيوسف، وكيف قطَّعنَ أيديهنَّ من جَماله؛ قالت: (فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ)، فعزمها هذا وتصميمها وجد له بين الحاضرات صمتًا وإقرارًا، ولم يكن منهنَّ مَنْ أنكرَتْ أو مانعَتْ.

٤٢-١٠٩ السجن في غياب العدل والإنصاف لا يكون حصريًّا على الظلمة والفُسّاق والبغاة؛ بل حتى لخصوم أولئك الظلمة الذين لا يسوِّقون لهم أو لا يمررون رغباتهم؛ (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ)، (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)، وربَّما صار السجن في بعض الأزمنة والأحوال حصريًّا على الأطهار والأبرار؛ ممن حملوا همَّ الدعوة ورفعوا لواء الإصلاح.

٤٣-١١٠ أن تكون إلى جناب الله وفي مرضاته ولو مسجونًا أو محاصَرًا أو فقيرًا أو مهانًا؛ خيرٌ من أن تكون في سَخطه بعيدًا عنه، ولو سكنتَ القصور عزيزًا مطاعًا؛ (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ).

٤٤-١١١ على العبد أن يَفِرّ إلى ربه مستعينًا به، ومنتصرًا بقربه، ومُستقوٍ به في كلّ أحواله، وهو في حال النوازل أشدُّ وآكَدُ؛ (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)؛ فالعبد مهما كان إيمانه وتقواه وارتفع عِلْمُه وذِكْرُه؛ فإنَّه بنفسه ضعيف، وهو مع الله قويّ مُصَان، وإذا أَوكَل اللهُ عبدَه إلى نفسه سقَط.

٤٥-١١٢ متى ذكَر العبدُ ربَّه في نفسه ذكَره اللهُ في نفسه، ومتى كان معه في رخائه كان معه في شدته، ومتى عَلِمَ اللهُ صدقَ فراره ولجوئه إليه؛ استجاب له، ولم يخذله، وكان عند حُسْن ظنه به؛ (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، سميع لدعوته عليم بقوة لجوئه وصِدْق عِفَّته.

٤٦-١١٣ في ظل قوامة المرأة بدلًا من الرجل تتغير الموازين والاعتبارات وتختلف الرُّؤَى والحيثيات والمعطيات؛ وربَّما ضاع العدل وغُيِّبت البراهين، وحينها يُصبح المتهم بريئًا والباغي وَرِعًا، ومن هذا المنطلق نفَّذت امرأةُ العزيزِ وعيدَها، وحقَّقت تحدِّيَها، رغم الدلائل القوية والبراهين القاطعة براءة يوسف وتورطها؛ (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ).

٤٧-١١٤ لم يجدوا حلًّا لإنهاء الأمر وحَسْمه صونًا لسُمعتهم، وحفاظًا لجنابهم بعد شيوع الخبر في المدينة؛ إلا أن يزيحوا يوسفَ عن الأنظار ويُغيِّبوه عن المشهد في السجن رغم براءته؛ (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ).

٤٨١-١١٥ في قوله: (لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)، التعبير بـ (إلى حين) فيه إشارة إلى عدم تحديد مدة لسجنه؛ فهو لم يُسْجَن بحكم قضائي بسبب تهمة ثبتت بحقه؛ بل كان القصد من إيداعه في السجن تغطية جريمة امرأة العزيز، ومواراة القضية حتى تغيب عن أذهان الناس.

٤٩-١١٦ الغنى والمُلْك والتَّرف يُفقِد الرجل قوامته ويُفْسِد عليه غيرته في الغالب، بدليل أن البيِّنات قامت في ثبوت تهمة زوجة العزيز وثبوت براءة يوسف؛ (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)؛ بل زوجُها أولُ مَنْ كشَف القضيةَ عندما ألفياه لدى الباب، ويوسف هاربٌ منها، وهي تتبعه؛ وعليه فأَوْلَى بالسجن امرأة العزيز لا يوسف؛ لكن للأسف كان جزاء الطهر السجن، بينما كان جزاء الخيانة الحريَّة!!

المحطة السادسة

يوسف خلف القضبان

١-١١٧ للبلاء صور كثيرة ومتنوعة، والسجن واحد منها، وأكثر الناس بلاءً الأنبياء، ثم أتباعهم، والسجن واحد من تلك الابتلاءات، وقد كان من حظّ بعض الأنبياء، ومنهم يوسف -عليه السلام-؛ (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ).

٢-١١٨ قوله تعالى: (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ)، في ذِكْر الفتيين لفتة وإشارة -ربما والله أعلم- إلى فُشُوّ التحرش واستعلاء النساء على الرجال في ذلك العصر؛ لذا ربما كان دخولهما السجن بنفس تهمة يوسف -والله أعلم-.

٣-١١٩ الصالحون والمحسنون يُعْرَفُون بسِيَرهم العطرة، وسلوكهم الحسن، وتعاملهم الجميل من خلال العِشْرة والمجالَسة لا من خلال ((c.v، أو مستند تعريفي أو عرض المؤهِّلات وسرد الخبرات والحديث عن النفس والترجمة لها؛ فالفتيان اللذان رأيَا الرؤيا لم يكونا يعرفان يوسف من قبلُ، ولا ما سيرته أو مَنْ آباؤه، ولا مَنْ عشيرتُه؛ بل حُسْن معشره في السجن هو من لفت انتباههم وجذَب أنظارَهم؛ مما جعَلَه -في نظرهم- محلَّ ثقتهم وأهلًا لسؤالهم، ولو كان مثلهم سجينًا؛ (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

٤-١٢٠ اتّهام الناس لك بما ليس فيك لا يُفْقِدك مكانتك، ولا يُسْقِط منزلتك؛ فيوسف جَمَعه بالفتيان السجنُ بتُهَم متعددة؛ إلا أن ذلك لم يُفْقِده مكانته الطيبة ومنزلته الحسنة؛ فلا زال في نظَر جلسائه وأصدقائه مُحْسِنًا مقدَّرًا؛ (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

٥-١٢١ لا يكفي ما في قلب العبد من إيمان، أو ما يحمله من مؤهِّلات وشهادات، ولو كانت ثريَّة ونفيسة؛ ما لم يُتَوِّج ذلك بعمل صالح وسلوك حَسَن وعِشْرَة جميلة؛ فالناس يَهُمُّها ما تراه واقعًا، وتعتمد على ما يلمسونه مُشاهَدًا؛ (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

٦-١٢٢ مَن يحمل همَّ الصلاح وقضية الإصلاح لا يُقْعِده وَضْعه الشَّخصيّ ولا العائلي ولا يُثنيه ما يعيشه من بلاء وهم؛ سواء كان سجنًا أو خوفًا أو فقرًا أو مرضًا أو غيره، بل دعوة الخَلْق إلى الله وتعبيدهم له هو همٌّ فوق كل همومه؛ فهو يدعو لربّه ويغار على حُرماته، ويسعى لمرضاته في كل أحواله؛ (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا).

١٢٣-٧ على مَن طُلِبَ منه معروف أو مساعَدة أن يُعجِّل في بَذْلها، وألَّا يُؤخِّرها حتى لا يذهب جَمالُها أو تفوت مصلحتها؛ (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)؛ فربما كان في تأخير تحقيقها نوعٌ من الإذلال والمنَّة، أو فوات حق أو ضياعه، أو ذهاب مصلحة، أو حصول ضرر أو وقوع خطر.

١٢٤-٨ المؤمن كالغيث ينفع حيث يقع؛ ويوسف -وهو في سجنه- مُغيَّبًا مظلومًا يجد نفسه مَعْنِيًّا بدعوة نزلاء السجن إلى توحيد ربهم -سبحانه-، وتحذيرهم من الشرك به؛ (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ* مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ).

١٢٥-٩ ينبغي للداعية أن يبدأ في دعوته بما العباد إليه أحوج؛ والتوحيد أول واجب، وغيره يأتي تَبَعًا له؛ فيوسف لم يُفسِّر لهما رؤياهما حتى بدأ دعوتهما إلى التوحيد ونبذ الشرك، وبيان خطره؛ لحاجتهما لذلك؛ (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ* مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ).

١٢٦-١٠ من المروءة شُكْر أهل المعروف، ونِسْبة الفضل لأهله، وأَوْلى الخَلْق بذلك أبواكَ، و أفضل الجميل و أكرمه أن تكون مُوحِّدًا نابذًا للشرك؛ (وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ).

١٢٧-١١ تأويل يوسف لرؤيا الفتيين هو مِن تعليم الله -تعالى- له، كما أن فيه تحقيقًا لما أخبره الله في قوله؛ (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)، و(وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ).

١٢٨-١٢ كثرة الكلام ليس دليلًا على كثرة عِلْم صاحبه وغزارته؛ بل يكفي من القلادة ما أحاط بالعُنُق، والجواب المختصَر المفيد هو دليل العِلْم والفقه معًا، وهذا واضح من خلال تفسير يوسف للرؤيا؛ (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ).

١٢٩-١٣ الأنبياء والرُّسُل ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية؛ فهم بشرٌ لكنهم مُنزَّهون عن الكبائر؛ بَيدَ أنَّهم ليسوا معصومينَ مما دُونَها، ويعتريهم الضعفُ البشريُّ من الخطأ والنسيان وغيرها، ومِنْ صُوَر ذلك قول يوسف للناجي من المسجونين؛ (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ...)؛ فقد طلب منه ذِكْره عند ربه؛ لكونه سيكون مُقرَّبًا من المَلِك كما ظهَر له عند تفسيره رؤياه.

١٣٠-١٤ الذنوب لا تحابي أحدًا، وعقوباتها تأتي على صُوَر متنوعة؛ فيعقوب -عليه السلام- عُوقب بفقده يوسف سنوات طويلة، قيل: (٤٠) سنة؛ لخشيته الذئب ونسيانه حفظ الله له، ويوسف عُوقِب بلُبْثه في السجن بضع سنين؛ لقوله للناجي منهما: (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)؛ أملًا في إخراجه؛ فطال مكثُه؛ كل هذا تأديبًا لنسيانه تدبير ربه، وتنبيهًا أن لطفًا ربانيًّا يعمل لصالحه، فلا حاجة لاستعطاف البشر.

١٣١-١٥ ليس من المعيب أن يقول مَنْ لا يعلم: لا أعلم، بل قوله ذلك منقبة ومَحمَدة، وملأُ الملكِ وحاشيتُه حين سألهم عن تفسير رؤياه أجابوه بكل شفافية: (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ)، والملائكة لم يَضُرَّها أو يعيبها حين سألهم الله فأجابوا: (لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) [البقرة: ٣٢]؛ إذ ليس من الضروري أن يتقن الشخص كل فن ويحسن كل مهارة ويحوز كلَّ علم؛ بل الله -سبحانه- وزَّع وَفَاوَتَ بين عباده في الأرزاق والأخلاق والأفهام والطاقات والإمكانيات.

١٣٢-١٦ إذا أراد اللهُ أمرًا فلا مردَّ له، ولا يَحُول دونَ تحقيقه مانعٌ؛ ويوسف لم تزل أقدار الله تتوالى عليه؛ ليقضي الله فيه أمرًا كان مفعولًا؛ فدخوله السجن ورؤيا الفتيين وتفسيره رؤياهما وخروج أحدهما، ورؤيا الملك وسؤاله الملأ لتفسيرها ليجيب الفتى الناجي؛ (أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)، كلها أسباب أوصلت خبرَ يوسف للمَلِك ليُصدِرَ أمرَه؛ (ائْتُونِي بِهِ).

١٣٣-١٧ عِظَمُ شأنِ الرؤيا الصادقة التي يراها العبد أو تُرَى له، ولو كانت من غير المسلمين، وقد كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يهتم بها، وكثيرًا ما يسأل أصحابه بعد أن يُصلِّيَ الصبح قائلًا: «هل رأى أحدٌ منكم رؤيا»(مسلم: ٢٢٧٥).

١٣٤-١٨ تفسير الرؤيا عِلْم وفُتيا، وينبغي ألا يتصدَّر لها مَن ليس مِن أهلها؛ (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا)، (أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ)، (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ)، وحتى الملك حين عرَض رؤياه على الملأ اشترَط قدرتَهم على التعبير؛ قائلًا: (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ).

١٩-١٣٥ الرؤيا في الأصل تكون قصيرة واضحة، ليس فيها تعارُض ولا مَتاهات ولا تناقضات، ومثالها رؤيا الفتيينِ والْمَلِكِ، وما كان على غير هذه الشاكلة، غالبًا ما تكون حديث نفس أو أحلامًا، أو غيرها.

٢٠-١٣٦ نالَ تأويلُ يوسف إعجابَ الملك و انبَهَر به، فطلب حضورَه لا ليُخَلِّصَه من السجن فحسبُ، بل ليقرّبه منه؛ (ائْتُونِي بِهِ)؛ فمثل هذا حقُّه أن يكون مستشارًا لا مسجونًا؛ دون أن ينظر في براءته أو تُهمته؛ ولسان حاله يقول: مَنْ كانت هذه تأويلاته وهذه سمعتُه لا يمكن أن يكون إلا عفيفًا شريفًا لا خائنًا ساقطًا.

٢١-١٣٧ يُصدِر الملكُ اليومَ مرسومًا بخروج السجين يوسف؛ ولكنَّ الغريب أن المرسوم يلاقي رفضَ يوسف -عليه السلام-؛ وتوجيه ذلك من أمور:

أولًا: ليُظْهِرَ براءته على الملأ أولًا، و أنَّه ليس من رَاوَد امرأة العزيز.

ثانيًا: أن خصومًا سياسيين مُقرَّبون طامعون في المُلك يحظون بقرب الملك، سيتخذون من إشاعة مراودته لامرأة العزيز فُرْصَة للنَّيْل منه وتشويهه، وسيُؤلِّبون عليه خصومه من عُشَّاق السياسة والراغبون في المُلْك خاصَّة بعد قول الملك؛ (أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)؛ لذا طلب من الرسول أن يرجع لسيده يسأله عن تقطيع النسوة أيديهنَّ ومُلابَسات ذلك؛ (ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)؛ لتنكشف حينها الأوراق، ويُعرَف بعدَها المتهمُ من البريء.

ثالثًا: ليأمن على نفسه الفتنة من مكر امرأة العزيز ونسوة المدينة بعد خروجه، ويقطع الطريق عليهنَّ حتى لا يتعرَّضنَ له مرة أخرى ويَعُدْن لمراودته.

رابعًا: كونه غريبًا فيهم دخيلًا عليهم قبل السجن وبعده، والمجتمع غالبًا مع الغريب لا يغفرون له أو يتسامحون معه؛ بخلاف الأصيل صاحب الأرض فإنهم يتجاوزن عنه، وهذا يحتِّم عليه أن يَطلُب براءةً ووضوحًا؛ خصوصًا وأن الموضوع متعلق بشرف سيده وعِرْضه.

خامسًا: حتى يكون بعد هذا محلَّ إجماع لدى الجميع ومحبة وتقدير عند الكل؛ وبالتالي تُمكِّنُه هذه العواملُ وغيرُها من تقليل خصومه، وكذا من سياسة القوم والقدرة على إصلاحهم.

٢٢-١٣٨ السجن في سبيل الدفاع عن الدين والشرف والعِرْض كرامةٌ، ولا حريَّة لمن عاش في غير ذلك، ويوسف رفَض الخروجَ من السجن قبلَ النظر في قضيته، وتحديد مَنِ المتهمُ ومَنِ البريءُ؛ (ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ).

٢٣-١٣٩ المخْلِصُ الصادقُ البريءُ مهما طالت تُهمتُه فلا بد يومًا من أن يُظهِر اللهُ في حقه الحقيقةَ عاجلًا أو آجلًا، ولو بعد موته، إمَّا بلسان المُتَّهِم نفسه أو بلسان القضاء أو بغيرها؛ (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ).

٢٤-١٤٠ يظهر من خلال اعتراف زوجة العزيز لرسول الملك؛ (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)، نَدمها وتوبتها مما جنَتْه نفسُها الأمَّارةُ بالسوء في حق يوسف، وما جرَّتْه عليه من بلاء ومعاناة؛ حيث راودته ثم رمته بجريرتها، ثم زجَّته في السجن...

٢٥-١٤١ عمَّ خبرُ براءته بين الناس كما عمَّ خبر تُهمته، ومن اتهمه بالأمس اليوم يشهد ببراءته، واليوم تُعْلَن براءته علنًا وهو في غَيبته سجينًا بعد استجواب نساء المدينة وامرأة العزيز؛ (قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ).

٢٦-١٤٢ في قوله تعالى: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) قولان: أحدهما: يوسف -عليه السلام- حيث قال أن صونه لعرض سيده بامتناعه لما دعته زوجته له كان ردا على جميل سيده له وإحسانه عليه، وليس ذلك أمامه؛ بل حتى في غيبته حفظ له معروفه وصان له عرشه وكرامته.

ثانيهما: أن القائلة هي زوجة العزيز تأكيد في سياق اعترافها، وأنها من راودته وليس هو. والأول قول الجمهور.

٢٧-١٤٣ ما كان فاحشًا من الأقوال، أو الأفعال، أو القصص، أو الأمثال؛ فإن الشرع والمروءة يأبيان الخوض فيه تصريحًا، ويوجبان التواري عنه، والكناية عنه بالإشارة دون تفصيل.

وهكذا يعلّمنا القرآن في قصة يوسف –عليه السلام– حين قال: (ذَلِكَ)، فجاءت الكلمة إشارة بليغة إلى حادثة المراودة، دون تفصيل أو إسهاب؛ صيانةً للكرامة، وحفظًا للحياء، ومنعًا لإشاعة الفاحشة بين الناس.

فالتفصيل في مثل هذه المواطن جناية على المشاعر، وجرح للمروءة، ولذلك عُدِل عن البيان إلى الإشارة، فكانت كلمة واحدة أبلغ من ألف وصف.

المحطة السابعة

يوسف السجين المنفي عزيز على مصر

١٤٤-١ بالأمس يُشِيع مرضى النفوس عن يوسف الكريم أنَّه لا أمانة لهذا الغريب المتنكِّر للجميل الخائن للأعراض؛ فأودعوه السجنَ، واليوم يقْلب المَلكُ الطاولة على الجميع؛ فيمنح السجينَ الغريبَ مكانةً لم يحظَ بها قريبٌ، وجعَلَه أمينَ سرِّه وصاحبَ خصوصياتِه، بل ومستشارًا له أعلى؛ (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ).

١٤٥-٢ أدرَك الملكُ -من خلال تفسير يوسف لرؤياه- ذكاء وحِنْكة وفراسة؛ في الوقت الذي عجَز كهنةُ معبد آمون عن تفسيرها؛ فطلبه مستشارًا له يستعين به في معالَجة الوضع الاقتصادي المتهالك الذي يعاني منه بلدُ مصر، من خلال وضع خطط استراتيجيَّة لدفع ما يُحيط بمصر من انهيار ماليّ وفساد إداريّ، وما يَنتظرها من سنين عجاف.

١٤٦-٣ قناعة الملك في كفاءة يوسف كانت حاضرة وتامة، والتوجيه كان واضحًا لم تسبقه مشاورة ولا تفكير ولا ساوره تردُّدٌ؛ (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)، ومن الواضح أن أمرَ الملك نُفِّذَ دون مراجَعة أو تعقيب؛ لذا قال الله: (فَلَمَّا كَلَّمَهُ)؛ فلم يكن هناك وقت طويل بين أمر الملك وبين إحضار يوسف.

١٤٧-٤ مَنْ ترَك شيئًا لله عوَّضه اللهُ خيرًا منه، امتُحِنَ يوسفُ و ابتُلِيَ ومَرَّ بأحداث صعاب ومِحَن صلاب فنَجَح في جميعها؛ فأورثَه اللهُ قُربًا، وأعقبَه مُلْكًا؛ (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)، وكان جزاء قوة إيمانه وثباته وحبسه شهوته وصونه الأعراض وحفظه المعروف أن صار على مصر عزيزًا وزيرًا؛ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ)؛ فكذلك الجزاء من جنس العمل.

١٤٨-٥ كان صِيت يوسف يملأ الآفاقَ؛ سواء في بيت العزيز أو في السجن، وما تناقلته الأخبار عنه لم يكن بالسهل كما يُحكى عن أيّ شابٍ؛ بل كان صيتًا فاق الوصف من العفة والطُّهر والمعروف والإحسان والمحبَّة والتسامح والذكاء والفطنة والحكمة والرأي.

١٤٩-٦ لا بأس أن يعرض الإنسانُ نفسَه لولايةٍ أو لسلطةٍ ما، إذا كان يجد من نفسه كفاءةً وقدرةً لا يلمسها في القائمينَ عليها أو يفتقدها المنافسون له؛ (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ).

١٥٠-٧ مشروعيَّة أن يذكر الإنسانُ محاسنَه للآخَرين ومميزاته، ويُبيّن ما عندَه من القُدُرات، إذا كان في ذِكْرها مصلحةٌ شرعيَّةٌ مُحقَّقةٌ ومجديةٌ للطرف الآخَر، ولو لم يُسأل عنها؛ (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ).

١٥١-٨ قوله: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ) فيه دلالةٌ على أن الله أعطاه صلاحية مطلقة وتفويضًا كاملًا لحُسْن فطنته وقوة مَلَكَته، ومثلُ هذا لم يُعطَه إلا سليمان -عليه السلام-؛ حيث قال الله له: (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، وكذا ذو القرنين؛ حيث قال الله له: (قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا).

١٥٢-٩ تولَّى يوسف إدارة البلاد فتحسَّن اقتصادها، وتعافت أمورها بما لديه من إمكانيات شحيحة، ورغم ظروفها الصعبة وأحوالها القاسية؛ وهذا يُعلِّمنا أن المشكلات الماليَّة والاقتصاديَّة التي تعاني منها كثيرٌ من البلدان والحكومات سببها سوء التدبير وفشل الإدارة، وقلة الخبرة وضَعْف الكفاءة، وليس سببها كلها -كما يُشاع- قِلَّة الموارد وغيرها من المُسوِّغات التي تُسوَّق؛ فيوسف لَمَّا تولَّى زمامَ الأمور في مصر، وتجاوَزها تلك الأزمة الطاحنة والقحط الشديد؛ لم يكن يملك أيَّ موارد جديدة يعالج بها وضعها المتهالك، و إنَّما فقط أحسَن التصرُّف في إدارة الموجود؛ (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ).

١٠-١٥٣ كل حركة وسكنة، وسبب ونتيجة، لا تخرج عن عِلْم الله وإرادته؛ فهو مُدبِّر الكون والخَلْق، وله الأمرُ بينَهما؛ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)؛ فالله هيَّأ ليوسف أسباب التمكين؛ فَمِنْ طفلٍ حارَبَه إخوتُه لا يريدون له خيرًا ولا ظهورًا، بل دبَّروا قتله وإخفاءه، إلى أن أصبح عزيزًا على خزائن أرض مصر، وحتى ساق إخوته وأهله إليه جياعًا محاويج في تدابير خفية وألطاف حفية، لم يكن في حسبان الناس عمومًا، ولا إخوته الحُسَّاد خصوصًا.

١١-١٥٤ الجزاء من جنس العمل؛ فالله يحفظ للعبد إحسانه وتقواه، ويجزيه على إحسانه ومعروفه؛ (وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)؛ فالله خير الشاكرين.

١٢-١٥٥ هذا التغيُّر في حياة يوسف من التمكين والسُّلطة والقرب من الملك والثقة التي مُنِحَت له، فيها إشارةٌ ربانيَّةٌ إلى أن المُلْك الدنيويّ وإن عَظُم، فهو حقير قياسًا بنعيم الآخرة وثوابها؛ (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)؛ فلا ينبغي أن يكون مقصد العبد هو مكاسب الدنيا، بل رضى الملك ومكاسب الآخرة ومنازلها.

المحطة الثامنة

يوسف العزيز يمارس مهمته ويقابل إخوته تُجَّارًا

١-١٥٦ لا زالت أقدار الله تتوالى على يوسف؛ لتحقيق ما رآه في رؤياه حال طفولته؛ فها هو اليوم يصبح عزيز مصر ومَالِك خزائنها، يدير شؤونها بيده وتحت أمره ونهيه؛ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ).

٢-١٥٧ من تدبير الله ليوسف أن تكون فلسطين مُجْدِبة ليُحْوِج إخوتَه لمصر؛ فيسوقهم إليه ليتزودوا منها؛ (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ).

٣-١٥٨ من الطبيعيّ أن يعرف يوسفُ إخوتَه؛ (فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)، كونه فارقهم كبارًا؛ بينما لم يعرفوه كونه فارقهم صغيرًا، كما أنهم لم يتوقعوا أن يصير إلى ما صار إليه؛ فهم باعوه عبدًا، وسيعيش عبدًا في نظرهم، وفي توقعهم إن لم يكن قد مات فعلى الأقل يكون عبدًا رقيقًا لا وزيرًا عزيزًا؛ (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

٤-١٥٩ على المرء أن يُوظِّف سلطانه ومكانته ويُسخِّر ماله وعمره في نَشْر الحق والعدل ودفع الشر والظلم، والأقربون أَولى الناسِ بذلك، وهذا ما فعله يوسف؛ حيث استغل موقعه، فدَبَّر حِيلَةً ليأتي بأخيه إليه ليُخلِّصه مِن ظلم إخوته، ثم يُحضِر أهلَه جميعًا بعد أن تستقر أوضاع مصر الذي أصبح عزيزًا عليها.

٥-١٦٠ كان يوسف كريم الأصل، حَسَن الطباع، صاحب مروءة وإحسان حتى مع مَنْ أساء إليه؛ فكيف بِمَنْ أحسَن؟! وهذا ظاهرٌ في تعامُلِه مع الآخَرين، ومنهم إخوته؛ ففي كل مرة كانوا يدخلون عليه كان يُحْسِن إليهم ويُكْرِمهم رغم ما فعلوه به، ولم يَظْهر منه غير ذلك؛ (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

٦-١٦١ من أجل جلب بنيامين في السَّفْرة القادمة اتخذ يوسف -عليه السلام- لإقناع إخوته عدة أمورٍ:

أولًا: سيكون إحضارهم له دليلًا على صِدْق ما ذكروه من فَقْرهم، وأن الزاد الذي حملوه من عنده متسامحًا معهم فيه لن يتَّجِرُوا به.

ثانيًا: جعل إحضار أخيه شرطًا لتعامله معهم مرة أخرى، وعدم إحضاره يعني قطع هذا التعامُل، وهذا يعني تعريض أنفسهم للهلاك جوعًا.

ثالثًا: إحسانه إليهم؛ حيث ردّ بضاعتهم لمتاعهم دون معرفتهم، وبإحسانه هذا يقطع عليهم تخوفهم أنَّه يُبَيِّت لهم شرًّا، بل قصده إحسانًا ومعروفًا؛ فكان فيه نوع من التطمين.

رابعًا: في إعطائهم ما يحتاجون له من الطعام دون مقابل إغراء لهم بفضله وإطماعًا لهم بكرمه، وهذا يُحفِّزهم لتحقيق طلبه وشرطه؛ (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ).

٧-١٦٢ من أعظم صور الإحسان: مراعاة المحسن مَشاعِر مَن يحسن إليهم؛ حتى لا يترتب على إحسانه جَرْح مشاعرهم أو إذلالهم أو مِنّته عليهم أو أذيتهم؛ (اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)؛ فقد وجَّه يوسف -عليه السلام- غلمانَه بجعل بضاعتهم التي جاءوا بها ثمنًا للطعام الذي سيبتاعونه منه في رحالهم خفْية؛ فنفوس البشر ليست سواء؛ فبعضها أَنِفَة عزيزة، وبعضها دون ذلك، وبعض الأعطيات بدلًا من أن تداوي جرحًا تنكأ جروحًا.

٨-١٦٣ هل كان إخوة يوسف يعانون من غباء فطريّ أو يتغابون؟! إنهم اليوم يطلبون أباهم أن يرسل معهم بنيامين، وبنفس سلوكهم مع أبيهم بخروج يوسف معهم والتطمين الذي ذكروه، والوعد الذي قطعوه؛ (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

٩-١٦٤ حين تتقاطع المصالح الدنيويَّة مع أهلها تتغير المواقف والأساليب والسلوك؛ فحين أرادوا إقناع أبيهم بإرسال بنيامين معهم وصفوه بالأخ؛ (فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا)، وحين نقلوا إليه ما جرى منه من حادثة السرقة لم يذكروا صلته بهم كأخ؛ بل قالوا: (إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ)، ولم يقولوا: إن أخانا سرق.

١٠-١٦٥ أفضل الخَلْق تعلُّمًا واستفادة من الماضي ودروس الحاضر هم أنبياء الله؛ فيعقوب -عليه السلام- في المرة السابقة كان ردُّه؛ (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ)، وأمَّا هنا فقال: (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

١١-١٦٦ عند طلب إخوة يوسف أباهم أن يرسل معهم يوسف وارى تخوفه منهم قائلًا: (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ)؛ لكنَّه مع طلبهم بنيامين صارحهم الرفض قائلًا: (لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ)؛ فلا ينبغي لمؤمن أن يُلدَغ من حجر مرتين.

١٢-١٦٧ كانت لقمة العيش هي ورقة الضغط على يعقوب -عليه السلام- ليسمح بولده بنيامين بالذهاب مع إخوته؛ (يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، وكثير ما يكون قُوت الإنسان وعِرْضه أوراق ضَغْط يستغلها البغاة الطامعون والتافهون الناقمون لتركيع الخصوم؛ لكنَّ استعمال يوسف لهذا الأسلوب مع إخوته ليس من هذا القبيل؛ (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)؛ وإنَّما كان هدفه دفع ظلم إخوته عن أخيه بنيامين؛ فقد كان يدرك أن إخوته يمارسون مع أخيه نفس الذي مارسوه معه.

١٣-١٦٨ لَمَّا رأى إخوة يوسف تحفُّظ أبيهم من إرسال بنامين معهم وتمنُّعه؛ خشيةَ أن يلاقي منهم ما لاقاه يوسف؛ استمالوا قلبَه بأسلوب الإغراء؛ فمع وعدهم له بحفظ بنيامين يضاف لذلك أن ذهابه سيُحقِّق عدةَ مصالح؛ (هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ).

١٤-١٦٩ الأصل أن المُجرَّب لا يُجرَّب، ولكنَّ المؤمن يَهاب الله -تعالى-، ويهاب الحَلِف به ويُصدِّق الحالفَ به، ويعقوب -عليه السلام- رغم يقينه بسوء معاملة أولاده إلا إنَّه وافق على إرسال بنيامين شريطةَ موثق من الله يقطعونه له ليأتُنَّ به؛ (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).

١٥-١٧٠ جواز أخذ الضمانات والاشتراطات للحفاظ على الحقوق والممتَلَكات ووجوب الوفاء بها؛ (لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ)، ومن أعطى ضمانًا لصاحب حقّ فتعرَّض حقُّه مستقبلًا للتلف؛ فإن كان عن تقصير وتعدٍّ ضمن، وإلا فلا ضمان.

١٦-١٧١ قوةُ إيمانِ العبدِ ويقينُه لا يمنعه من الأخذ بالأسباب؛ لاتقاء الأخطار المحتمَلة، وفعل الأسباب من التعبد إلى الله، وهو فرار من أقدار الله إلى أقدار الله؛ (يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)، وهذا لا يتعارض مع الاستعانة بالله والتوكل عليه.

١٧-١٧٢ حذَّر يعقوب -عليه السلام- أولاده أن يدخلوا من باب واحد، والسبب -والله أعلم- يعود لأمرين:

أولًا: خشية أن تُصيبهم عين؛ فأولاد يعقوب -عليه السلام- كانوا أحَدَ عشَرَ؛ فخشي أن يكون في دخولهم جميعًا مدعاة للحسد.

ثانيًا: إن كان هناك مِن خطر محتمَل ينتظرهم فلن يصيبهم جميعهم ما داموا متفرقين، بخلاف ما لو دخلوا جميعًا، خصوصًا وأن طلب يوسف: (ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ)، طلب لا مُسوِّغ له ويجب التعامُل معه بحذر.

١٨-١٧٣ في قوله -تعالى-: (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ)، يبيّن أن توجيه يعقوب لأولاده بأخذ احتياطهم لم يكن مِن قبيل الجهالة، ولا سوء الظن أو الرجم بالغيب؛ بل كان عن عِلْم مِن واقع الحال، ودراية بسنن الله وما علَّمه إيَّاه.

المحطة التاسعة

يوسف يلتقي أخاه ومكيدة أخذه

١-١٧٤ دخَل إخوةُ يوسف على يوسف؛ فانفرد بأخيه وأبلغه بحِيلته تجاهه؛ ليُخلِّصه من مَكْر إخوته ليكون على عِلْم ومعرفة بما سيتَّخذه يوسف تجاهه من مكيدة؛ (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وحتى لا يحصل منه ردّة فعل تُفْسِد حيلته وتكشف مكيدته.

٢-١٧٥ في قوله: (إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ)، لمسات ولفتات:

أولها: اللفتة الشعورية ليوسف حيث قدم القرابة على التعريف؛ فلم يقل: أنا يوسف؛ بل استعمل لفظة الأُخوة التي افتقدها بقوله: (إِنِّي أَنَا أَخُوكَ)؛ فذلك أسكَنُ لقلب بنيامين في تلك اللحظات، وتعويضًا له عمَّا فات.

ثانيها: قوة إحساس يوسف بوضع أخيه بنيامين، وما تعرَّض له من إخوته من قسوة وجفاء من قبل وفترة غيابه؛ (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وأنَّه لم ينس أخاه مع طول غيابه وعظيم ما تعرَّض له بعد مكيدة إخوته له.

ثالثها: إدراك يوسف -عليه السلام- اشتياق أخيه له، وبادله بأنَّه كان حاضرًا في فكره ومشاعره؛ لذا بادَرَه بقوله: (إِنِّي أَنَا أَخُوكَ).

رابعها: لم يتطرق يوسف لإخوته أو يتعرَّض لذمهم؛ بل طمأن أخاه قائلًا: (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

٢-١٧٦ جواز الحِيَل والتوريات والمعاريض لأخذ حقّ أو استرجاعه، أو لدفع باطل أو إزالته، وهو ما فعله يوسف -عليه السلام- مع أخيه؛ قال الله: (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)؛ فدبَّر له مكيدةً بأن جعل السقاية في رَحْله؛ ليجعل منها مُسوِّغًا لأخذه من خلال حُكْم صادر مبنيّ على دليل ثابت وهو وجود السقاية في رحله.

١٧٧-٤ إذا لم يكن لدى الإنسان دليل أو بيِّنة في دعواه أو عِلْم يقينيّ؛ فلا يجوزله رَمْي الآخَرين بدَعْوى دون دليل، أو لمجرد ظن أو شبهة، ولأن يوسف هو مَن وضع السقاية في رَحْل أخيه؛ (جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ)؛ فلم يكن لديه حرج أن ينادي مناديه فيهم، إنكم لسارقون على سبيل اليقين.

١٧٨-٥ جَمال القرآن الكريم في حُسْن استعمال ألفاظه بما يتو افق مع الحال والزمان والمكان؛ فوعاء الشراب والكيل ورَد التعبيرُعنه بِاسْمينِ مختلفينِ؛ سمَّاه السقاية حين وضعه في رحل أخيه؛ (جَعَلَ السِّقَايَةَ)، وهذا الاسم العامّ، بينما سمَّاه صواع الملك لَمَّا نادى مؤذنه في القافلة قائلًا: (نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ)؛ والحكمة في نسب الصواع للملك ليمنحه صفة رسميَّة وطابعًا سلطويًّا وقيمة عالية؛ مما يجعل الحادثةَ في أعينهم أكبرَشناعةً وأعظمَ جرمًا.

١٧٩-٦ في هذه المرة صدَق إخوة يوسف في قولهم؛ (مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)، وإلا فليس هناك فساد أكبر مما فعلوه بيوسف وأخيه.

١٨٠-٧ يجوزلصاحب الضالَّة منح عطية أو جُعْل لمن وجَدَها له؛ بدليل قوله: (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)، وقد بذلها فتيان يوسف لقافلة إخوته، ومن معهم مقابل أن يعيدوا لهم صواع يوسف، كما يجوز أخذها لمن وجدها وردّها وسلّمها؛ لكنَّ إخوة يوسف هنا أقبلوا معتذرينَ أن ذلك لم يكن منهم وما كان لهم أن يفعلوا شيئًا مثل هذا.

١٨١-٨ مشروعية الكفالة والضمان عن الغير؛ (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)؛ أي كفيل وضمينٌ بتسليمه حالَ وجدتُم صواع الملك، وفيه مشروعية قَبول الضمان لمن عرَض له.

١٨٢-٩ من ذكاء يوسف وشدة حِنكته أنَّه -وعن طريق فتيانه- سألوا إخوته فيما لو وجدنا السقاية عند أحدكم ما جزاؤه؟ (فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)؛ فاستنطقَهم الحكمَ عليه فنطقوا به قائلين؛ (مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)، وهذا ما يهدف إليه يوسف؛ فجعل مِن حُكمهم حُجَّة عليهم، وهو ما جعلهم يُسلِّمونه له، دون اعتراض أو تظلُّم.

١٨٣-١٠ في شرائع مَنْ قَبلَنا، لم يكن واجبًا على مجتمع أن يدين بشرائع مجتمع آخَر، أو بعبارة أخرى: لم يكن يجب على مجتمع ما أن يدين لنبي بُعِثَ أو رسول أُرسِلَ لمجتمع آخَر، ومن يجب عليه هو مَن أُرسِل إليهم أو بُعِث فيهم فقط، ولا يقع الواجب على غيرهم، وهنا كان حكم السارق في دين الملك هو استرقاقه، وهذا ما لم يكن في ديانة أهل فلسطين؛ قال الله: (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)؛ ولو حكم يوسف عليهم من خلال تشريعات مصر ربما لم يرضخوا، لكن ردَّ الحكم لهم عليه.

١٨٤-١١ لقد كان العرض المقدَّم ابتداءً هو حمل بعير إن هم أرجَعوا صواعَ الملك من غير تفتيش، وبموجب هذا العرض ليس ليوسف مسوّغ في أخذ من وجد السقاية عنده، ولأن الله كاد ليوسف حتى يأخذ أخاه عنده صرفهم عن تفتيش متاعهم بأنفسهم ليثبتوا براءتهم، بل اكتفوا بالإنكاروأن ذلك لم يكن منهم؛ ولو قُدر أنهم فتشوها لوجدوها معهم، ووقتها ستفشل حيلة يوسف ومكيدته، وهي أخذه أخاه، وهذا مصداق قوله: (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ).

١٨٥-١٢ عند وجود الجمع من الإخوة الأشقاء وغير الأشقاء يُقدَّم بالذِّكر والنَّسب الأشقاء؛ (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ)، برغم أن جميعهم إخوته؛ إلا أنَّه ذكَر نسبة الأُخوَّة إلى الشقيق دون غيره.

١٨٦-١٣ بدأ فريق التفتيش بأوعية الإخوة لأب قبل وعاء أخيه الشقيق؛ إذ لو بدأ بوعائه قبلهم ربما شكوا أن هناك أمرًا دُبِّر بليلٍ؛ وبهذا تفسد خُطَّتُه وتكشف مكيدته.

١٨٧-١٤ لماذا مكيدة إخوة يوسف لأخذ يوسف كانت ظالمة؛ بينما مكيدة يوسف لأخذ أخيه جائزة؟!

الجواب أن الحِيَل والمكائد التي تُفْضي إلى إهدار حقّ ومصادرته أو تحقيق باطل و إيقاع ظلم حرام؛ وهو ما حقَّقته مكيدة إخوة يوسف بيوسف؛ وأما الحق الذي لا يتحقَّق إلا بحيلة، والظلم الذي لا يُدفَع إلا بمكيدة؛ فلا بأس باللجوء إليها؛ ومكيدة يوسف كانت من قَبيل ذلك؛ وسواء ما فعلَه كان من وحي الله له أو من إلهامه أو إقرار الله له بذلك؛ قال الله: (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ).

١٨٨-١٥ ثناء الله -سبحانه- على يوسف أنَّه صاحب عِلْم؛ ففي أول السورة قال عنه: (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)، وقال هنا: (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)، وشواهد ذلك منثورفي ثنايا هذه القصة العظيمة.

١٨٩-١٦ إذا توغَّل الحسدُ في قلب امرئ فلا دواء له؛ وإخوة يوسف برغم ما فعلوه به إلا أن حسدَهم لم يُزَل؛ فلا زالوا يكنّون له الكراهية؛ فحتى هذه اللحظة لا زالوا يتذكرون أخطاءه -ربما كانت محض افتراء- ومنها اتهامه بالسرقة؛ (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ

لَهُ مِنْ قَبْلُ)، وما الحاجة اليوم لذِكْر يوسف بعد أن فعلوا به ما أراح نفوسهم الحاقِدَة! ولماذا لا زالوا محتفظين بهذه الواقعة؟! ألم تُشْفَ صدورهم بما فعلوه به بعدُ؟!

١٧-١٩٠ الألدّ الخَصِم والحسود النَّقِم لا يَنْسَى الماضي، وغير حريص على ردم هُوّة الخلاف أو جمع الشتات؛ بل يحاول تشتيت الانتباه وتكثير نقاط الخلاف وتحشيد الأخطاء؛ والحقيقة أنَّه لا يحب حلولًا لو اقعه؛ فهو يعيش مشاكل نفسيَّة وسلوكيَّة؛ فإخوة يوسف بدلًا أن يبحثوا عن حلّ لتدارُك ما حصَل ذهبوا ينبشون الماضي، والذي لا يتعلَّق ببنيامين بل بيوسف؛ (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ)؛ بينما يوسف قد صار منفيًا رقيقًا لا يُعلَم في أيّ بلدٍ يكون، وربَّما لم يَعُد حيًّا.

١٨-١٩١ الرجل الشَّهم صاحب المروءة لا يجرجره خصومه للانتقام، والأنذال للتراشق؛ بل يمسك غضبه ويكظم غيظه ويتصبَّر ويدفع بالتي هي أحسن، ويوسف لما سمع اتهامهم له بالسرقة لم يُغيِّر من مبادئه وقِيَمه؛ (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ).

١٩-١٩٢ الحقد يُورِّث قَطْع الصلة، ويهدم جدار القربى؛ وإخوة يوسف لما فاوضوه أن يأخذ أحدًا منهم مكانه؛ قالوا: (يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)، ولم يقولوا: أبونا شيخ كبير، فتحدثوا كأن الأب ليس أباهم، والأخ ليس أخاهم.

٢٠-١٩٣ في الشرع لا يتحمل بريء جريرة مُذْنِب، ولو كان قريبًا له، وإخوة يوسف عرضوا على يوسف أخذ واحد منهم بدلًا من بنيامين؛ (فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ)؛ كونهم قطعوا لأبيهم عهدًا بعودته؛ فكان ردُّه؛ (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ).

٢١-١٩٤ مظاهر الإحسان في يوسف كانت ظاهرة في سلوكه وتصرُّفاته و أقواله و أفعاله وكل شؤونه؛ مع القريب والبعيد، والعدو والصديق، في الشدة والرخاء، في السجن وخارجه، في الصِّغَر والكِبَر، في الرِّق والحريَّة، والملك والسلطان؛ (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

٢٢-١٩٥ كان كبيرهم أعقلهم قليلًا وأخفَّهم عداوةً؛ فقد أقسم ألا يعود إلى أبيه من دون يوسف؛ معتذرًا إليهم بميثاقهم الذي قطعوه لأبيهم؛ (قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ)، والسر في تحرجه -والله أعلم- كونه الكبير فهم، فلا شكَّ أنَّه سيحمل من عتاب أبيه وعقابه وسخطه ما لا يكون لغيره؛ فقد يحصل التفريط من الصغير؛ لكن كيف يحصل من الكبير؟!

٢٣-١٩٦ حين يئسوا من استرجاع بنيامين، ذهبوا يستجمعون عدة أدلة ليثبتوا براءتهم لأبيهم؛ فبنيامين اقترف جريمة السرقة، ولسنا مفترين عليه، ولصحة ما نقول؛ (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا)، ثم أكدوا عليها بـ«إن» التأكيديَّة، (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)؛ بينما في قصة يوسف كانت أدلتهم الواهيَة دليلًا عليهم لا لهم؛ (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)؛ فدلَّ كلامُهم هذا أنهم غير صادقين، وحتى لو كنا صادقين لن تصدقنا.

٢٤-١٩٧ مَن ظاهره الشَّرّ وعُرِفَ به يجوز إساءة الظن به، وإحسان الظن به من السذاجة والسطحيَّة وليس من المحمود شرعًا؛ فيعقوب -عليه السلام- لما أخبروه بما حصل من بنيامين لم يُصدِّقهم رغم صدقهم هذه المرة، بل ذكر أن لهم يدًا فيما حصل، وأنَّهم دبَّرُوا له مكيدة كما دَبَّرُوا ليوسف مِن قبلُ؛ (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ).

٢٥-١٩٨ قوة صبر الأنبياء بالله -تعالى- وحِلْمهم على مَن أساء عليهم؛ فحدث كبير مثل فَقْد يوسف -عليه السلام- ثم بعده بنيامين؛ إنه لعظيم، ولكنَّك تجد يعقوب في كليها يُردِّد عبارة: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ).

٢٦-١٩٩ ما من شيء يحدث في الكون إلا ولله فيه حكمة، يعلمها -سبحانه- ويُقدّرها، ويعقوب -عليه السلام- تعامَل مع خبر بنيامين بسكون نفس وطمأنينة قلب؛ (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)؛ فالله -سبحانه- حكيمٌ فيما يُجْرِيه في خَلْقه وحكيمٌ في تصرُّفه وتدبيره، وعليمٌ بما يُصْلِحهم.

٢٧-٢٠٠ حين تعظم المصيبة، ويكظم القلب ألمه، ويبلغ الحزن منتهاه؛ تدفع العين الضريبة فيذهب نورها وينطفئ عمَلُها؛ (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ).

٢٨-٢٠١ لما رأى إخوة يوسف أباهم متأثرًا بعد غياب بنيامين، وقبله يوسف؛ أبدوا له ناصحين أن يُهوِّن من ذِكْر يوسف؛ ففي ذِكْره تَعْرِيض نفسه للهلاك وجِسْمه للمرض، ومن باب سوء الظن بهؤلاء لم يكونوا مشفقين على أبيهم، بل يخشون أن يُذَكِّرهم اسمًا طالما كان مزعجًا لهم، كما خافوا أن يُعِيد لهم فتح ملف يعدُّونه كابوسًا حسبوه قد أُغْلِق.

٢٩-٢٠٢ بثّ الشكوى والحزن لا يكون إلا لله وحده، إلا لضرورة ومصلحة، ويجب الحذر من التذمُّر والتسخط على قضاء الله وقدره: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ).

٣٠-٢٠٣ بلاغة القرآن ودقته في إيراده العبارتين (البث، الحزن)؛ وهما تختلفان عن بعضهما، وقد حصَلا ليعقوب فعلًا؛ والسبب أنَّه لو ذكر الحزن فقط لفُهم أن حزنه داخلي فقط، ولو ذكر الشكوى فقط لفُهم أنَّه لم يصبر وكشف شكواه للناس، بينما قد حصل له الأمَانُ الداخليُّ والخارجيُّ، وكلاهما سيرفعهما إلى الله -تعالى-: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ).

٣١-٢٠٤ كان يعقوب -عليه السلام- يدرك أن من رحم الشدائد تظهر الفوائد، ومن بطون المِحَن تُولَد المِنَح، ومَن علَّق قلبه بربه لن يخيب، وشواهد ذلك كثيرة؛ (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)، (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا).

٣٢-٢٠٥ يجب أن يكن رجاء العبد بالله حاضرًا وأمله بربه شاهدًا، وهو في شدة كربه وعظيم خَطْبه، وهذا ما شوهد من يعقوب -عليه السلام-؛ (فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)، ومثله؛ (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا).

٣٣-٢٠٦ وحتى هذه اللحظة لا زالوا يعاندون أباهم، ولا يأبهون بما يوجِّههم به؛ فبالرغم أن أباهم قد شدَّد عليهم أن يتحسَّسوا من يوسف ويتفقدوه؛ (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)؛ لكنهم للأسف لم يكن جُلّ همّهم يوسف ولا أخاه؛ بل كانوا يفكرون كيف يستعطفون العزيز فيكرمهم بعطائه ويغدقهم بإحسانه، وألا يلتفت إلى ما حملوا إليه من بضاعة مزجاة؛ (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا).

٣٤-٢٠٧ لَمَّا كان من المتوقَّع والطبيعيّ أن أول ما يسألون عنه هو أخوهم بنيامين الذي احتجزه، ويُعيدون مفاوضتَه ويطرحون مقايضته، فقضية يوسف هي تكليف أبيهم لهم؛ لكنَّه تفاجأ أن هذا ليس همَّهم؛ بل همُّهم أن ينظر في حالهم ويُحسِن إليهم، وهو ما يؤكد -بما لا يدع مجالًا للشك- عداوتَهم المستمرَّة ليوسف وأخيه بنيامين؛ فكانت اللحظة هي الأنسب لأن يفصح عن المشهد برُمَّتِه.

٣٥-٢٠٨ هذه هي المرة الثالثة التي يلتقي فيها إخوة يوسف بيوسف؛ ففي الأولى طلب منهم أخاه الشقيق. وفي الثانية جاءوا بأخيه معهم فدبَّر خطة لإبقائه عنده، وقد كان بحضوره تحقق المقصود؛ وبالتالي فأي إجراء آخَر نحوهم فسيعتبرونه من قَبِيل التعسف عليهم والاستعداء لهم، وهذا يتنافى مع خُلُق يوسف الكريم وسمو نفسه.

٣٦-٢٠٩ هنا لقاؤهم الثالث بيوسف -عليه السلام-، وهو الفصل ما قبل الأخير من القصة والحلقة ما قبل الأخيرة؛ ليدخل يوسف في صلب موضوعه المغيَّب ويكشف أوراقه الغامضة، ويفاجئهم أن الذي يترددون عليه في سفراتهم الثلاث ويخاطبهم هو يوسف؛ فيفجر الموقف بسؤال مفاجئ واستفهام مباغت؛ يصعق قلوبهم ويصك آذانهم؛ (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)، فبُهتُوا جميعًا وسقط في أيديهم متسائلين ومندهشين: (أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ)؛ أمعقول أنت هو! كيف حدَث ذلك؟!!

٣٧-٢١٠ المؤمن يردُّ كلَّ فضل ونعمة إلى الله -تعالى-، ولا ينسبها لنفسه أو جهده أو ذكائه أو خبرته أو علمه؛ فالله صاحب المنَّة في جلب كل خير ودفع كل شر؛ (أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا).

٣٨-٢١١ التمكين والانتصار لا يأتي فجأةً ولا بسهولة؛ بل يسبق ذلك سنن إلهيَّة؛ تدرج، و ابتلاء، وصبر، وثبات، وغيرها؛ (قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ).

٣٩-٢١٢ من أراد إحسان الله عليه وتفضُّله فليزم التقوى والصبر والإحسان؛ (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)، وهذان العاملان المهمان هما سبب كل فضل ونعمة، ودفع كل بلاء ونقمة.

٤٠-٢١٣ في هذه اللحظة نُدرك عاقبةَ الطرفين ونتيجةَ السلوكين؛ فعاقبة الإحسان والتقوى والصبر: التمكين والرزق والسعادة، بينما عاقبة البغي والحقد والحسد: الفقر والنكد والهوان على الله؛ وهذا ما أثبتوه معترفين في قولهم: (تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)؛ فأجابوا بتفضيل الله له عليهم، وما خصَّه به من الفضل والمكانة والعاقبة.

٤١-٢١٤ قديمًا استغلوا مُسوِّغ أبيهم من أن الذي منعه أن يرسل يوسف معهم خوفه من الذئب؛ (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)، فكان عذرهم بعد مكيدتهم؛ (فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)، واليوم يستغلون إعذار يوسف لهم يوم نسب ما فعلوه به إلى جهلهم؛ (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)؛ فاستغلوا إعذارَه لهم زاعمينَ أنما فعلوه به كان من قَبِيل الخطأ؛ (وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)، ولم يعترفوا بخطيئتهم فيقولوا: (وإن كنا لمخطئين)، وهناك فرق بينهما لفظًا ومعنًى.

٤٢-٢١٥ سلامة صدر يوسف ورُقيّه نفسًا وطباعًا وسلوكًا، فهو كما وصفه نبينا -صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-: «الكَرِيمُ، ابنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بنِ إسْحاقَ بنِ إبْراهِيمَ -عليه السلام-»(البخاري: ٣٣٩)؛ فهو يهرك بشعوره ورُقِي تعامله، وشواهد ذلك

كثير؛ منها:

١-إعذاره إخوته فيما ألحَقُوه به؛ فقال: (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ). ورَفْعه الحرج عنهم ولم يُثرِّب عليهم أو يُوبِّخهم؛ فقال: (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)، بل دعا الله لهم قائلًا: (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

٢- لم يكذبهم قبلَها أو يخاصمهم، بل كتَم غيظَه؛ قائلًا: (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ). ٣- في لقائه الأخير بهم لم يذكر بلاء الجُبّ رغم أنَّه أشد و أقسى، وفيه الموت شبه المحقَّق، كونهم مَنْ أوقعوه به، بل ذكَر بلاءَ السجن؛ فقال: (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ).

٤- وحال دخولهم قصره لم يقل: جئتُم فقراءَ ولا مساكينَ ولا نازحينَ ولا من بلاد الفقر إليَّ؛ بل قال: (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ).

٥- نسَب ظلمهم إلى أنَّه نزغٌ من الشيطان لا منهم؛ فقال: (مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)، وغيرها.

٤٣-٢١٦ أنتَ تريد، وغيرك يريد، ولا يكون إلا ما الله يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لِمَا منَع؛ وهنا أراد إخوة يوسف له الذلة والمهانة؛ فباعوه بثمن بخس، وأراد الله له الرفعة والمهابة؛ فصار وزيرًا عزيزًا مكرَّمًا؛ وهذا ما اعترفوا به هم؛ (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)؛ أي فضَّلك اللهُ علينا.

٤٤-٢١٧ يوسف مليءٌ مروءةً وإحسانًا حتى مشاشه، فبرغم مثولهم بين يديه وهم في قمة الذل، وما زالوا يراوغون، لكن لم يبرح قِيَمه ولم يتخلَّ عن مبادئه، فلا زال في قمة الفضل والصفح، لم يُثرِّب عليهم أو يُعنِّفهم، بل سأل اللهَ لهم المغفرةَ وأمَّلهم بالله الغفور الرحيم؛ (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

٤٥-٢١٨ لم يكن همُّ يوسف ما صار منهم، ولا ما أسبابه، ولا ما نتج عن ذلك؛ ولا شغله التحقيق فيه وترتيب عقاب ذلك وجزائه؛ بل كان همُّه بَصَرَ أبيه ومجيأه إليه؛ لذا أغلق ملفه الخاص وقال: (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا).

٤٦-٢١٩ الأدب الجمّ الذي كان يتمتع به يوسف -عليه السلام- مع أبيه وبرّه به؛ (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي)، ولم يقل: على وجه أبيكم؛ كما ينادونه هم.

٤٧-٢٢٠ لم يكن من عادة إخوة يوسف إظهار الأدب مع أبيهم، ولم يُعرَف أنهم ذكروه بلفظة (الأبوة) إلا عند وجود مصلحة؛ فحينها تتحسَّن أخلاقُهم ويظهر منهم البِرّ والمودة؛ وظهر ذلك في موضعين:

الأول: حين طلبوا منه أن يرسل معهم يوسف؛ (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ).

والثاني: عندما أُلقي القميص على وجهه فرجع بصره؛ (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) ٩٧]؛ ففي الأولى قالوها مستميلين قلبه. والثانية مستعطفين أبوَّته.

٤٨-٢٢١ من وفاء المرء ومروءته إذا أنعم الله عليه نعمة أو أسدل عليه فضلًا أن يُشْرِكَ فيه مَنْ لهم فَضْلٌ عليه من الأهل والأقربين، وأَوْلى بذلك الوالدان؛ فيوسف لم ينسَ أهلَه ووالديه من الخير الذي ينعم فيه، ولم يكتفِ أن يبعث لهم بحاجتهم؛ بل طلب مجيئهم ليعيشوا معه الخيرَ ويشاركوه النعمةَ والفضلَ؛ (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ).

٤٩-٢٢٢ في قوله تعالى عن يوسف -عليه السلام-: (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)، لفتة مهمة، وهي أن يوسف -عليه السلام- لم يقل و أتوني بأهلكم دون توكيد، أو بأهلي فقط؛ بل خص أهل إخوانه بالذكر؛ فقال: (بِأَهْلِكُمْ)، و أكَّدها ب (أَجْمَعِينَ)، وهذا يشير إلى أمرين:

أولًا: ألَّا يُفهم من طلبه حضور أهله هو فقط؛ بل وسَّع الدائرة ليدخل في طلبه أهل إخوته وذرياتهم وأرحامهم و أقاربهم، وفي هذا كمال الكرم والضيافة، ومنتهى الجبر والسماحة معهم.

ثانيًا: تأكيده على مجيء الجميع؛ بحيث لا يستثنوا أحدًا، ولا يتخلف من قرابتهم أحد، وأما قرابته هو فَهُم من باب أَوْلى.

٥٠-٢٢٣ الله -تعالى- يُجْرِي على أيدي أنبيائه معجزات خارقة، ومنهم نبيه يعقوب -عليه السلام-؛ فقد وجَد ريحَ يوسف بعد أن فصلت العيرُ من المدينة التي فيها يوسف؛ رغم المسافات البعيدة؛ (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ).

٥١-٢٢٤ ينشأ الأبناء على سلوك الآباء في الأصل؛ فيعقوب -عليه السلام- لَمَّا أخبَر مَنْ عندَه أنَّه يجد ريحَ يوسف لاقى سخريةً من أحفاده؛ فقالوا: (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)، هذا في حال قلنا: إن جميع أبنائه حال شَمّه ريح يوسف لم يكن أحدٌ منهم قد وصل، بل كلهم في طريقهم من مصر لفلسطين غير من حمل القميص؛ فيذهب التوجيه إلى أن الحوار كان بينه وبين أحفاده وأهليهم.

٢٢٥-٥٢ كيف لقميص أن يُلْقَى على مَن ابيضت عيناه حزنًا فيبرأ، ويعود لطبيعته؛ إلا أن يكون هناك عناية إلهيَّة ومعجزة ربانيَّة تُثبِت نبوةَ يعقوب ويوسف -عليهما السلام- معًا، وصِدْق ما جاءا به، وأنَّه من عند الله؛ (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا).

٢٢٦-٥٣ ثقة يعقوب -عليه السلام- بالله ويقينه به؛ وهو ما كان يتصف به في كل نازلة؛ (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)، (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)، (فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)، وقد تحقَّق ذلك و اقعًا؛ فجبَر اللهُ مُصابَه، وأعاد إليه وَلَديه كما أعاد له بَصَره، ولم يرولده حيًّا سالمًا فحسبُ؛ بل قد أصبح نبيًّا عزيزًا.

٢٢٧-٥٤ طلب الأبناء من أبيهم أن يستغفرلهم؛ فلم يُجِبهم لطلبهم مباشرةً، بل استعمل لفظة: (سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)، بخلاف ما فعله يوسف -عليه السلام- حين طلبوا منه أن يستغفرلهم فاستغفر، وتفسيره -والله أعلم-:

أولًا: أن قلبه لم يزل متألمًا مما اقترفوه بحقه وحق يوسف وأخيه.

ثانيًا: حرصه على التأكُّد من صحة توبتهم وندمهم.

ثالثًا: ليس واجبًا على الأب أن يلبّي طلب أبنائه على الفور؛ فسؤالهم له يعد طلبًا وليس أمرًا؛ بخلاف لو كان الأمر من الوالد لأبنائه، فيجب تنفيذ طلبه على الفور.

رابعًا: ربما يحتاج لمشاوَرة يوسف فهو مَن دَفع ضريبة بَغْيهم؛ فربما رَغِبَ أن يستشف رضاه عنهم وتنازله عن حقه.

المحطة العاشرة

يوسف وتحقُّق الرؤيا

٢٢٨-١ من إكرام الضيف على مضيفه أن يستقبله عند قدومه، كما أن من إكرامه أن يُشيّعه عند رحيله؛ فيوسف عند مجيء والديه وأهله استقبلهم ومَنْ معَه خارجَ المدينة؛ قال الله: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ)، وهذا الدخول الأول حين دخلوا عليه في المكان الذي انتظرهم واستقبلهم فيه، وأمَّا الدخول الثاني فحين دخلوا المدينة قال لهم: (ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ).

٢٢٩-٢ من إكرام الضيف على مضيفه أن يُقرِّب منه كبيرهم سنًّا وعلمًا وجاهًا، ويُدنيه إليه؛ (آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ)؛ مراعاةً لمقامه بين أهله وعشيرته؛ فهكذا يحبون أن يروه مُقدَّرًا معززًا، وهو من إدخال السرور على الضيف ومن إكرامه ورفقته.

٢٣٠-٣ التوجيه وفق الوضع الحركيّ للمشهد أن الذي سجد هم إخوة يوسف وليس معهم أبوهم؛ (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا)؛ فالمشهد أنَّه بعد أن رفَع يوسفُ أبويه على العرش، كان إخوته في جهة؛ بينما يوسف في الجهة المقابلة؛ وبعد هذا وقع السجود، وهذه التوجيه -والله أعلم- لأمور:

أولها: كيف يسجد أبواه له وهم جلوس على العرش؟!

ثانيها: استعمل القرآنُ لفظةَ: (وَخَرُّوا)، والخر لا يكون إلا للو اقف.

ثالثًا: أن هذا يتعارض مع إكرام الولد لأبويه والضيف لمضيفه.

رابعًا: السجود هنا ليس الانحناء أو الركوع؛ بل السجود على الأرض، وهذا يتعارض مع ما ذكرنا.

٢٣١-٤ ومن إكرام الضيف تأمينه وطمأنته؛ (ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)؛ سواء رأى المضيفُ ذلك على المضيف أو توقَّعَه من خلال قراءات معينة أو حيثيات.

٢٣٢-٥ لَمَّا دخَل الجميعُ على يوسف آوى إليه أبويه، ولعل من دواعي ذلك -إضافةً لما سبق- أنَّه ربما -والله أعلم- كان يتوقع أن في قلبي والديه تخوفًا من مستقبل هذه الأسرة ألا يحصل لها من الحزن والشتات ما حصل لها من قبل؛ فطمأنهما قائلًا: (ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ).

٢٣٣-٦ استعمل القرآنُ لفظةَ الأبوين وليس الوالدين في قوله: (آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ)، فنسب الإيواء للأبوة وليس للوالدة وهي الأم؛ والسر -والله أعلم-:

أولًا: أن القصة أبرزت دور الأب بحنانه واهتمامه وموقفه في القصة؛ بينما لم يكن للأم أي دور يُذكَر؛ لذا لم يأت باسم الوالدين نسبة للأم كونها ولَدَت.

ثانيًا: أيضًا مهمة أبوية تشير إلى المقام والمكانة، بينما (الوالدية) تُشِير إلى الولادة والنسب فقط.

٢٣٤-٧ ليس من الضروري تحقُّق الرؤيا الصادقة عاجلًا؛ بل قد يتأخر وقوعها لسنوات؛ فما بين رؤيا يوسف -عليه السلام- صغيرًا؛ (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)، وبين وقوعها كبيرًا؛ (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)، عشرات السنين، وفي كل هذه السنين لم ينشغل لا يوسف ولا أبوه بتحققها ووقوعها.

٢٣٥-٨ وإلى هنا -أيها القارئ الكريم- تنتهي قصتنا وتكتمل حكايتنا، وحان الوقت لأن نرسو بسفينتنا على شاطئها، ونقف عند آخِر حلقاتها المضيئة وفصولها الجميلة؛ والتي بدأت برؤيا طفل، أعقَبَها فصول وتبعتها مراحل؛ جميعها بلاء ومِحَن لهذا الطفل الرائي، وحتى صار الطفل عزيزًا منيعًا في بلدة صارت في عهده رخاءً وأمنًا وخيرات وبركات، فأصبحت هدفًا للتجار ومقصدًا للسائلين، ممَّا دعا إخوته لقصده مرارًا، لكن اليوم يدخلون عليه بأهله أجمعين وافدين وزائرين وضيوفًا مكرمين؛ فيُؤوِي إليه أبويه ويرفعهما على العرش، ليخروا له سجدًا؛ فتتحقق رؤيا الطفل التي رآها قبل عشرات السنين؛ (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)، والحمدُ لله ربِّ العالَمِينَ.

المحطة الحادية عشرة

يوسف وخوفه الخاتمة

١-٢٣٦ تكرار قوله: (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) في القصة، فيه بيان أن أفعال الله في الكون وتدبيره في الخَلْق قائم على عِلْم وحكمة، وهذا يدعوك -بدوره- إلى الرضى والتسليم فيما قدره الله لكَ وكتَبَه عليكَ؛ فلا تنزعج ولا تتبرَّم، واعلم أن الخير فيما قدَّرَه واختارَه ودبَّرَه.

٢-٢٣٧ على كل عبد عند كل نعمة وبعدها أن يلهج بحمد ربه ويُكثِر من ذِكْره وشكره، ويقر بمنته وفضله، ويوسف -عليه السلام- بعد ألطاف الله الخفيَّة وتدابيره العلية، وبعد اجتماعه بأبويه وأهله وتحقُّق الرؤيا؛ ذهب يُعدِّد بعض تلك النعم التي امتنّها الله عليه رادًّا الفضل له معترفًا بإحسانه عليه ولُطفه به؛ (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ).

٣-٢٣٨ مشروعيَّة الثناء بين يدي الدعاء؛ فيوسف قبل دعائه أثنى على ربه -سبحانه- بكثير من المحامد، ثم سأل ربَّه أن يتوفاه مسلمًا؛ (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ).

٤-٢٣٩ في قوله تعالى: (أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)، ثناءُ يوسف على ربّه بفضله عليه وتولّيه له في كل الأحداث والمو اقف التي واجهَتْه، وهو يرجو ربه أن يتولاه في أخراه كما لم تنقطع عنه ولايته له في دنياه.

٥-٢٤٠ تعرُّض يوسف لكثير من الابتلاءات في كثير من المحطات التي تنقَّل فيها؛ (الطفولة، الجُبّ، مراوَدة امرأة العزيز، السجن، استدعاء الملك، تقلُّده منصب الوزير، حضور إخوته بين يديه، حِيلته لإبقاء أخيه معه، حضور أبويه وتحقُّق الرؤيا)، وكلّ هذه فِتَن؛ لكن أكبر فتنة واجهها يوسف وخَشِيَها على نفسه منها هي فتنة المُلْك والجاه والسُّلطة والمال؛ لذا تمنَّى من ربه أن يتولاه ولا يَكِله لنفسه، وطلَب الثباتَ على الإسلام والموت عليه؛ (أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

٦-٢٤١ ليس بعد الكمال إلا النقصان؛ فبعد المنزلة التي وصل إليها يوسف -عليه السلام-، والرؤيا التي تحققت، والأمنيات التي صارت و اقعًا، وصارت الأمور كما يحب؛ أدرك أن أجَلَه قريبٌ، فرفع يديه قائلًا: (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

٧-٢٤٢ التواضع الجمّ الذي كان يتمتع به يوسف -عليه السلام-، وهو ما ظهَر في دعائه ربَّه أن يُلْحِقه بالصالحين ويحشره معهم؛ (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)، وإن لم يكن يوسف عمدة الصالحين وإمام المتقين وقدوة للمحسنين ومثالًا للصابرين فَمَنْ؟!

المحطة الثانية عشرة

يوسف وخاتمة السورة

١-٢٤٣ يؤكد الله -تعالى- في آخر السورة في هذه الآية حقيقة أن القرآن من عند الله؛ فقال: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) كما رسَّخه في بدايتها حين استفتحها بقوله: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ)؛ فيؤكد في الآيتين أن محمدًا رسولٌ يُوحَى إليه ليس إلَّا، وأن هذا القرآن ومنه هذه القصة وما ورَد فيها من أخبار وأحكام وتشريعات من عند الله.

٢-٢٤٤ كما تُعاوِد الآياتُ -أيضًا- في آخِر السورة لتؤكِّد على أمر مهم كانت قد استفتحَتْ به؛ لتشدَّ القارئَ والسامعَ لهذه القصة فيحضر بقلبه وفكره؛ قال الله: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)؛ وتجدَّد الحديث عن هذا المفهوم في آيات ختَمَها اللهُ -تعالى- بقوله: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)؛ ليُحسِنَ العبدُ الاستفادةَ من هذه القصة خصوصًا، وغيرها عمومًا؛ فقصصُ القرآنِ ليست للتسلية ولا للفكاهة؛ بل للعظة والعبرة.

٣-٢٤٥ وأخيرًا -أيها القارئ الكريم- إن المتتبِّع لأحداث هذه القصة العظيمة، يجد أنه يجمعها هدف واحد، وتدور حول إرساء نقطة مركزية هامة، وجميعها يعالج خلقًا جليلًا وقيمة فاضلة؛ برغم أنها سلكت موضوعات متعددة، وتنقَّلت بين أحداث متنوعة عبر مراحل زمنية متفاوتة؛ لكنها في النهاية هدفت إلى ترسيخ هذه النقطة المحورية الأبرز (العفة)، وإليك أبرز المواقف التي تطرقت لهذه القيمة سلبًا وإيجابًا بصورها المتنوعة في سياقاتها المختلفة:

١. سقوط العفة سبب للظلم والبغي:

ففي قوله تعالى: (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا...)، يكشف المقترَحُ عن دناءة نفوسهم وغياب عفتهم الأخلاقية، والتي تتعارض مع الرضا والقناعة؛ فَسَادَ -للأسف- الحسدُ والطمعُ مكانَ الرحمة والبر.

٢. العفيف يُنزِل الناسَ منازلَهم:

فقول العزيز: (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ...)، علامة على أن عزيز مصر كان كريمًا في نظرته لعبد صغير اشتراه؛ فلم يُهنه بل أراد له حياة كريمة، وهذه عفة في السلوك الإنساني والاجتماعي معًا.

٣. ذهاب العفة يُفقِد المرءَ موقعَه:

يقول الله: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا...)، وهنا يجسد موقفها فتنة الشهوة حين تغيب العفة، ومخاطر ذلك على شرف العبد ومكانته وتصرفاته.

٤. غياب العفة مؤذن بفساد المجتمعات:

ففي قوله عن نسوة المدينة: (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ...)، تعبير عن إعجابهن بسلوك لا يليق، وفقدهن عفتهن النفسية أمام الجمال الباهر، وفيه تصوير لفساد تلك البيئة؛ فدل على أن غياب العفة يعمّق الانحلال.

٥. العفة سبب النجاة والتمكين:

في قوله: (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ...)، قدَّم العفةَ على الراحة والحرية، فكانت مستقبَلًا سببًا في النجاة والتمكين لاحقًا؛ (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ).

٦. العفة تعامُل وسلوك:

وبهذا شهد الفتيان في السجن ليوسف -عليه السلام-؛ حيث قالا له: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)، والعفة واحدة من مظاهر الإحسان، وهذه الشهادة الصادرة من مسجونين، تؤكد أن العفة تظهر في السلوك حتى في أشد الظروف.

٧. أعظم العفة سلامة القلب من الشرك:

يقول الله عن يوسف -عليه السلام-: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ...)؛ فطهارة قلبه من الشرك عفة عقدية، ولما عفَّ قلبه من الشرك أثمر عفة جوارحه.

٨. العفة مقياس بين الصلاح والفساد:

ففي قول امرأة العزيز: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي...) اعتراف منها بعد أن صلح حالها، وهذا يُبْرز أن الانحراف عن العفة فساد ذاتي، وأن ذهاب العفة يتعارض مع الصلاح والشرف والفطرة.

٩. العفة تمنعك أذى الآخَرِينَ:

فقد طلَب يوسفُ -عليه السلام- من الملك إمارة البلاد قائلًا: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ...)؛ ليدير شؤونها المالية والإدارية دون أن يطعن في فشل الإدارة القائمة أو يَذْكرهم بسوء؛ بل قدَّم نفسَه بحكمة، وعفَّ لسانه عن التوبيخ وترفَّع عن الانتقاص.

١٠. العفة تُلزِمُكَ العدلَ وتفرض عليك الإنصاف:

فقد اختار الملك الأصلح لاستشارته، ولو كان غريبًا سجينًا؛ فقال: (ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي...)، مؤمنًا أن مثل هذا السجين الحكيم والنبيه، لا يصلح إلا أن يكون مستشارًا مقرَّبًا لا سجينًا مُبعَدًا.

١١. العفة تمنعكَ الانتقامَ:

فمنذ دخول إخوة يوسف عليه أول مرة؛ (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)، وما بعدها نجد أنه لم يفضحهم، أو يعاملهم بالمثل؛ بل عفَّ يده عنهم كما عفَّ لسانه؛ (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)؛ وبالتالي فقد جاوز العفو إلى الصفح؛ لندرك أن ترك الانتقام عند القدرة غاية في العفة.

١٢. العفة خلق ثابت لا متغيّر ليوسف:

فبرغم من أنه مر بمراحل متعددة وامتحانات قاسية في السجن وفي القصر وفي الحكم، ستجد أن ثبات العفة شعورًا وقولًا وسلوكًا، وهو سرُّ علوِّه.

١٣. العفة تعرفك الرضا والتسليم في كل محنة:

قال الله على لسان يوسف -عليه السلام-: (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ...)؛ فكان رضاه وثباته دليلًا على عفة نفسه عن التسخط والاعتراض.

١٤. العفة تسامح وحسن عشرة:

فطلبُه في قوله: (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)، دليل على عفة صدره من الغل والكبر؛ فلم يتنكَّر لأهله رغم ما فعلوه به، بل أحسن إليهم ولأهليهم، وهذه عفة الكرام عند العلو.

١٥. العفة تواضُع وشكر لأصحاب الفضل:

فإنه لَمَّا تحققت رؤيا يوسف -عليه السلام- ناجى ربَّه: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ...)؛ حيث أظهر تواضعه واعترافه بالفضل لله وحده، وهو أعلى درجات العفة النفسية، والبراءة من الأنا.

٢٤٦-٤ الخلاصة: أن قصة يوسف -عليه السلام- قدمت لنا -يا كرام- العفة ليس كخلق فردي فحسب، أو عبارة عن حياء الجسد، أو مجرد قيمة طارئة، أو عرضية في السورة؛ بل حضرت كمبدأ إصلاحي شامل للنفس والعقل والدين واللسان، وأن العفة سلوك يُمتحن به الأفراد في السراء والضراء، وتظهر فيه مو اقف الأبطال، وتُقاس به النُبل من الدناءة، والرفعة من السقوط، والعفة منهج حياة متكامل يعالج الانحر افات السلوكية والفكرية والنفسية، والقضايا المجتمعية والأسرية، والاختلالات الإدارية والمالية.

وأخيرًا -أيها الفضلاء- هذا ما تيسر إيراده وتهيَّأ إعداده، فإن كان صو ابًا فمن الله وحده، وإن كان غيرَذلك؛ فذلك مني والشيطان، والله ورسوله بريئان مما قلتُ خطأً.

واللهَ أسألُ أن يهدينا إلى سواء السبيل، وصراطه المستقيم، وأن يجعلنا من أهل القرآن وخاصته، وأهل شفاعته يومَ القيامة.

تم بحمد الله، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه العبد الفقير إلى عفو ربه/ أبو الخليل زياد الريسي

مدير الإدارة العِلميَّة لملتقى الخطباء

سلسلة تدبر قصص القرآن الكريم

١